الاستغراب وأثره في الدرس البلاغي

إعداد

د / أشرف محمود عبدالهادي الدمهوجي
مدرس البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية فرع جامعة
الأزهر بالمنوفية

(العدد الخامس والثلاثون)
(الإصدار الأول)
(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)

الاستغراب وأثره في الدرس البلاغي

أشرف محمود عبدالهادي الدمهوجي

قسم البلاغة والنقد ، كلية اللغة العربية، المنوفية، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.

البريد الالكتروني: ashrafeldamhogy.lan@azhar.edu.eg

ملخص البحث: هذه دراسة موجزة عن أثر الاستغراب في الدرس البلاغي، والذي يعنى بدراسة فكر الغرب، وما يتعلق به من نظريات، ومصطلحات، ومعارف متعددة، وأثر ذلك في الدرس البلاغي إيجابا وسلبا، حيث كان للاستغراب أثره في البلاغة العربية، فظهرت الدعوة إلى ما يسمى بـ (البلاغة الجديدة)، وهي تستدعي بالضرورة النظرة للمضاد لها، المحددة في (البلاغة القديمة)، وقد كشفت الدراسة عن عناية العلماء العرب في شتى الميادين بالجانب الاستعمالي للُّغة، واهتمامهم بعناصر العملية التواصلية، واستحضار المقام، ومن ثمَّ إبراز معالم التلاقي بين البلاغة العربية والنظريات اللغوية الحديثة، وتطبيق ذلك في ضوء تراثنا اللغوي.

ومن ثمّ، فإن تطبيق مظاهر الاستغراب في البلاغة العربية يسهم بشكل كبير في إظهار خصائص العربية–وهي مقتبسة في ثوب جديد من تراثنا العربي–، وبيان ما تتميز به من ظواهر وأساليب؛ لمعالجتها في ضوء الاستعمال بتوسيع الإدراك التحليلي إلى لحظات التواصل الخطابية بعيدا عن الجمود في التركيب، واللغة العربية أسمح في تبني عناصر المقام التواصلي.

الكلمات المفتاحية: (الاستغراب – المقام البلاغي – النسق البلاغي– الأيديولوجيا)

Surprising and its impact on the rhetorical lesson

Ashraf Mahmoud Abdulhadi Al-Damhouji
Department of Rhetoric and Criticism، Faculty of Arabic Language، Menoufia، Al-Azhar University، Arab Republic of Egypt.
Email: ashrafeldamhogy.lan@azhar.edu.eg

Abstract: This is a brief study on the effect of strangeness on the rhetorical term, which is concerned with the study of the West, and the related theories, terminology, and various knowledges. You invoke ancient India), and you recall the trademarks in (Al-Balaghah), and this study has been reached in various parts of the world. Modern Linguistics, and you are that in the light of our linguistic heritage.
Hence, the application of manifestations of curiosity in Arabic rhetoric greatly contributes to revealing the characteristics of Arabic - which is borrowed in a new dress from our Arab heritage - and to clarify the phenomena and methods that characterize it; To address it in the light of use by expanding the analytical perception to the moments of discursive communication away from the rigidity of the structure, and the Arabic language allows the adoption of the elements of the communicative maqam.

key words: Amazement - ideology - rhetorical pattern - rhetorical position

المقدمة

الحمد لله الذي أشرقت بنوره الأرض، والصلاة والسلام على من فتح فضاء العلم للإنسانية من المهد إلى اللحد (محمدﷺ) وبعـــــد،،،

فهذه دراسة موجزة عن أثر الاستغراب في الدرس البلاغي، والذي يعنى بدراسة فكر الغرب، وما يتعلق به من نظريات ومصطلحات ومعارف متعددة، وأثر ذلك في الدرس البلاغي إيجابا وسلبا.

حيث تمثل العديد من الدراسات البلاغية –التي فرضت نفسها تصورا يبحث عن الاكتمال، أو مشروعا مقروءا منذ بداية القرن العشرين حتى يومنا هذا، وشكلا من أشكال خرق المألوف في معاينة البلاغة العربية فكرا ودرسا، في إيجاد سبل أخرى عبر صور التجديد أو التطوير، أو التيسير في دائرة العمل البلاغي، وهي مسبوقة بإرث بلاغي تقعَّدت صورته التقسيمية مع السكاكي الذي صار مفتاحه قاعدة في تشكيل ثقافة الشرح والتلخيص، وقد انطلقت تلك الثقافة منذ بداية القرن الثامن الهجري عبر متون شارحة وملخصة لمفتاح العلوم.

ثم كان هذا التطور والتجديد في البلاغة الذي له ما له، وعليه ما عليه؛ فكان من نتاج ذلك هذه الجملة التي أزعجتني، حيث كانت حكما سريعا على تراثنا العربي وهو حكم ليس بالهين، ولا شك أنها تزعج أي عربي غيور على تراثه، أنقلها نصا؛ لخطورتها– يقول صاحبها : "إن النقد العربي الحديث لن يستقيم له سير ما لم ينفتح على نظيره الغربي، ويستفيد من مصطلحاته النقدية ويفيده في الوقت نفسه"[1]، هذه الجملة هي التي كانت سببا رئيسا في هذا البحث، حيث جعل استقامة النقد العربي مرتبطا بنظيره الغربي، بل ودعا إلى الإقبال على تلك المصطلحات المستقاة في أصلها من مرجعية نقدية فرنسية

(١) مرجعية المصطلح النقدي عند عبدالملك مرتاض، ٢٣٨، عالم الفكر، مج ٤٢، ع ١، ٢٠١٣م.

بالدرجة الأولى، هذه المرجعية التي تأثر بها "مرتاض" بطريق مباشر أو غير مباشر؛ لقضائه ردحا من الزمن في الديار الفرنسية أتيح له خلالها إتقان لغتها، والاحتكاك بأدبها إلى حد ما، وإكبابه على قراءة أبرز متون النقد الفرنسي المعاصر(بارت، جينيت، تودوروف)، ومن هنا يمكن القول: إنه من الواجب علينا نحن المتخصصين في الدفاع عن اللغة العربية وعن تراثها أن ندرس فكر هؤلاء القوم؛ كي يتمكن كل واحد منا بالرد على مثل هذه الأحكام التي انبهر بها الحداثيون ، وأيضا من الحفاظ على هذا التراث العربي العريق، مع العلم أنه لا يصح أن نغفل هذا الدرس البلاغي الحديث، فنأخذ من تلك الحداثة الغربية ما يتناسب والأصول البلاغية العربية حيث الإعجاز الكامن في نظم القرآن.

من هذا المنطلق كان للاستغراب أثره في البلاغة العربية، حيث ظهرت الدعوة إلى ما يسمى بـ (البلاغة الجديدة)، وهي تستدعي بالضرورة النظرة للمضاد لها، المحددة في (البلاغة القديمة)، وتأمُّلُنا لهذه الثنائية التي تبدو بسيطة يفجر لنا ما يستعصي على الحصر من الثنائيات الضدية التي اكتنفت البحث البلاغي، فقد كانت البلاغة وما تزال موزعة تحت وطأة الثنائيات الضدية إلى حد تغيم معه قضاياها، فإذا حاولنا استكشاف واقعنا بالسؤال عبر الثنائيات، وجدنا أنفسنا في مواجهة شبكة متداخلة الخطوط من الأسئلة التي تتدافع تبعا لأهميتها وحضورها الآتي.

وكان لهذا الفكر أن تفشّى في عصرنا، وظهرت دعوى تأثر العرب بغيرهم من الأمم السابقة بطريقة أفقدت العربية أصالتها، وخاصة بالجانب المعرفي، فكان من الواجب على كل عربي غيور على لغة القرآن أن يتصدى لمثل هذه الدعوات غير المستنيرة، بل هي فرض عين على كل متخصص في البلاغة العربية أن يقف وقفة جادة بالبحث والدراسة للحفاظ على هذا التراث الذي هو لغة القرآن الكريم، فكان هذا البحث بعنوان (الاستغراب، وأثره في الدرس البلاغي).

أما عن دواعي اختيار الموضوع: فمن أهم الأسباب الدافعة له:

١- تتبع العقل البلاغي في الثقافتين العربية والغربية.

٢- كشف النقاب عن أهم روافد الثقافة المعرفية والمصطلحات الغربية، وأثرها في الفكر البلاغي.

٣- الوقوف عند مناهج الغربيين؛ لمعرفة أثرهم في البلاغة العربية.

٤- إماطة اللثام عن حقيقة ما يقال عن البلاغة العربية، بأنها جمدت الفكر البلاغي.

منهج الدراسة:

تعتمد هذه الدراسة على المنهج الوصفي الذي يُعنى بوصف الواقع الذي عليه البلاغة العربية مقارنة بالبلاغة الغربية، ثم المنهج التاريخي؛ لتتبع الظواهر البلاغية، ثم المنهج النقدي اللغوي الفني الذي يوضح أثر الاستغراب في البلاغة العربية مع ذكر مصطلح غربي (الأيديولوجيا) كنموذج تطبيقي للمصطلحات الغربية مقارنة بالدرس البلاغي العربي.

خطة الدراسة: تأتي الدراسة مكونة من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، أما المقدمة، ففيها الحديث عن الموضوع، وأهميته، ودوافعه، وأهدافه، ومنهجه، وخطته التي يسير عليها.

وجاء التمهيد، بعنوان: (الاستغراب مفهوما، ونشأة، وتطورا)، ويشتمل على ثلاثة محاور:

المحور الأول: مفهوم الاستغراب في اللسان العربي، والاصطلاح العلمي.

المحور الثاني: نشأته، وتطوره.

المحور الثالث: وظيفته، وأثره.

ثم كانت مباحث الدراسة كما يلي:

المبحث الأول: مظاهر الاستغراب في الدرس البلاغي.

المبحث الثاني: أثر الاستغراب في المصطلحات البلاغية العربية.

المبحث الثالث:(الأيديولوجيا)[1] بين البلاغة العربية والمصطلح الغربي.

ثم تأتي الخاتمة في أعقاب هذا البحث، وبها نتائج الدراسة، ثم المصادر والمراجع، ثم الفهرس.

وبعد، فلا أزعم أنني أشرفت على الغاية المرجوة من هذه الدراسة، وحسبي أنني أخلصت الجهد، وبذلت المستطاع، والله أسأل أن يمنحني الصواب والرشاد، ويلهمني الحكمة وفصل الخطاب، والله الموفق إلى سواء السبيل.

الباحث/أشرف محمود عبد الهادي الدمهوجي
مدرس البلاغة والنقد بالكلية

(١) سبب اختيار هذا المصطلح: انتشاره الكبير في شتى مجالات المعرفة في وقتنا الحاضر؛ فقيل إنه يساعد على تفسير الأسس الأخلاقية للفعل الواقعي، ويعمل على توجيهه، فضلًا عن أن الأيديولوجيا أصبحت نسقًا قابلًا للتغير استجابة للتغيرات الراهنة والمتوقعة، سواء أكانت على المستوى المحلي أم العالمي، وللنسق المقدرة على تبرير السلوك الشخصي، وإضفاء المشروعية على النظام القائم والدفاع عنه.

تمهيد

(الاستغراب بين المفهوم والنشأة والوظيفة)

مفهوم الاستغراب في اللسان العربي والاصطلاح العلمي:

الغرب خلاف الشرق وهو (المغرب)، يقول تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن:١٧]، وقد تعددت المعاني اللغوية، وتباينت لمادة (غرب)، وهي في مجملها تدور حول النزوح عن الوطن والاغتراب، والغموض في الكلام.

يقول ابن منظور: "والغُرباءُ: الأَباعِدُ، والغَريبُ: الغامِضُ مِنَ الْكَلَامِ؛ وكَلمة غريبةٌ، وَقَدْ غَرُبَتْ، وَهُوَ مِنْ ذَلِكَ، وَفَرَسٌ غَرْبٌ: مُتَرامٍ بِنَفْسِهِ، مُتَتابعٌ فِي حُضْره، لَا يُنْزِعُ حَتَّى يَبْعَدَ بِفَارِسِه، وغَرْبُ الفَرَسِ: حِدَّتُه، وأَوَّلُ جَرْيِه؛ تَقُولُ: كفَفْتُ مِنْ غَرْبه "(١).

وقد ظلت كلمة (الاستغراب) تستعمل بمعناها اللغوي المباشر حتى الربع الأول من القرن العشرين، وهو المعنى الذي يدور حول: "الدهشة والحيرة من غرابة شيء ما، وأصل الغرب في اللغة البُعْد، ومنه جاء معنى المبالغة حين يُقال: أغرب في الضحك، أو استغرب ضاحكًا أي: بالغ فيه"(٢).

المعنى الاصطلاحي للاستغراب:

من الصعوبة أن يقطع أحد بوجود علم الاستغراب كعلم له كيانه، ومنهجه ومدارسه، وأهدافه، وأصحابه، وأتباعه؛ نظرا لأن هذا المجال لم يصبح بعد علما مستقلا، لكن من المتوقع في ضوء النهضة العلمية التي تشهدها البلاد العربية والإسلامية أن تقوم مراكز البحث العلمي، ووزارات التعليم العالي؛ بإنشاء أقسام علمية تدرس الغرب دراسة علمية ميدانية تخصصية في شتى المجالات، وهذا من الأهمية بمكان.

---

(١) لسان العرب، مادة: غرب.

(٢) السابق: ٦٤٢/١، والقاموس المحيط / ١٥٤، وتاج العروس ٤٧٤/٣.

وجدير بالذكر أن نفرق بين الاستغراب والتغريب، فالاستغراب يعنى بدراسة فكر وعقل الغرب دون التنازل عن الذاتية العربية، أما التغريب، فهو ما حاول الغرب أن يفرضه على الشعوب العربية (الإسلامية) من تبني الفكر الغربي، والمناهج الغربية، والأطروحات الغربية في شتى مجالات الحياة في السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والعمران، أو هو سلخ الشعوب من هويتها الأصلية إلى هوية غريبة عنها هي الهوية الغربية، وأطلق على من تبنى الفكر الغربي متغربين أو مستغربين، أي مالوا إلى الغرب(١).

من هذا المنطلق يمكن إدراك ماهية الاستغراب في كونه علم يهتم بدراسة الغرب – أوربا وأمريكا بما في ذلك روسيا، وأوربا الشرقية – بجميع النواحي اللغوية، والعقدية، والتشريعية، والتاريخية، والجغرافية، والاقتصادية والسياسية، والثقافية...إلخ.

وأشهر من تحدث عن الاستغراب د/ حسن حنفي، في كتابه (مقدمة في علم الاستغراب) يقول: " الاستغراب هو الوجه الآخر والمقابل، بل والنقيض من الاستشراق، فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا (الشرق) من خلال الآخر(الغرب)، فإن (علم الاستغراب) يهدف إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر...، والقضاء على مركب العظمة لدى الآخر بتحويله من ذات دارس إلى موضوع مدروس، والقضاء على مركب النقص لدى الآخر بتحويله في موضوع مدروس، إلى ذات دراسة مهمتها القضاء على الإحساس بالنقص أمام الغرب، لغة وثقافة وعلما، مذاهب ونظريات وآراء"(٢).

---

(١) ينظر: الاستشراق والاستغراب، علاء الدين أحمد خليفة/١١،ط١، دار غيداء للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م.

(٢) مقدمة في علم الاستغراب، حسن حنفي /٢٩، ط٢، الدار الفنية للنشر والتوزيع، ١٤١١هـ، ١٩٩١م بتصرف.

نشأة مصطلح الاستغراب، وتطوره:

إن لعلم الاستغراب أصولا وجذورا أساسية ينطلق منها، وأعني (بتأسيس الأصول) لعلم الاستغراب تنزيل القواعد الكلية الإسلامية على موضوع هذا العلم، وكما نعرف أن العلم في الإسلام كمنهج ينطلق من قاعدة (التميز الإسلامي) التي هي دليل الإيمان بأن الله هو الحق، وأن الإسلام حق، وأن محمدا-ﷺ-حق. ومن هنا كان التأهيل الإسلامي لعلم الاستغراب يحتاج إلى هضم أمور ثلاثة، الأول: الإسلام كدين ومنهج حياة، والثاني: الغرب كواقع وحقيقة بشرية، والثالث: الفوارق المؤثرة، والمفرقة بين الإسلام والغرب.

فكان لنشأة علم الاستغراب جذور، حيث تمتد إلى اليونان والرومان- جزء من الغرب-جغرافيا، وتاريخيا، وحضاريا، فهي مصادر الوعي الأوروبي، كذلك تمتد إلى الأنا الحضاري الجديد المتمثل للتراث في مصر، وكنعان، وأشور، وبابل، وفارس، والهند، والصين، وهي الحضارات التي ورثها الإسلام، وتمثلها الأنا الحضاري الإسلامي الجديد(١).

كما تمتد جذور علم الاستغراب في نموذجه القديم في علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارة اليونانية، عندما كانت الحضارة الإسلامية ذات دارس استطاعت أن تجول الحضارة اليونانية إلى موضوع دراسته، فظهر الجدل بين الأنا والآخر جدلا صحيحا، الأنا ذات دارس، والآخر موضوع مدروس، وقد تم ذلك على عدة مراحل:

١- النقل الحرفي، وإعطاء الأولوية للفظ على المعنى حرصا على اللغة المنقول منها، وهي اليونانية مع العناية بنشأة المصطلح الفلسفي.

٢- النقل المعنوي، وإعطاء الأولوية للمعنى على اللفظ حرصا على اللغة المنقول إليها، وهي العربية مع بداية التأليف الفلسفي غير المباشر.

(١) ينظر: مقدمة في علم الاستغراب، حسن حنفي /٥٦.

٣- التلخيص، وهو دراسة الموضوع ذاته مع التركيز على اللب دون الحاجة والبرهان، الحد الأدنى من القول فيه بلا زيادة أو نقصان، فيتجاوز النص والقول إلى موضوع.

٤- التأليف في الوافد بالعرض والإكمال، وكان نص الآخر قد تم احتواء لفظه ومعناه وموضوعه، وأصبح الموضوع الأنا المستقل[١].

أما عن تطور المصطلح:

نجد أن مصطلح (الاستغراب) ينتمي إلى فئة الكلمات التي تُستعمل في العلوم الإنسانية، ولا تعني بالضبط معناها اللغوي، وإنما هو مصطلح متولد من تفاعل وتطور تاريخي ثقافي وحضاري، ولهذا يتوجب علينا أن نلقي الضوء حول تطور كلمة (الاستغراب).

فلم يزل يستعمل (الاستغراب) بمعنى (التغرب أو التغريب)، ومن أولئك الذين قالوا بذلك د/ عبدالله الشارف في كتابه (أثر الاستغراب في التربية والتعليم بالمغرب)[٢]، وكتابه (الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر)[٣]، ود/ محمود خليف حضير الحياني في كتابه (الاستشراق والاستغراب)[٤]، ولايزال هذا اللفظ مستعملاً بهذا المعنى في البحوث العلمية، وفي الصحافة والإعلام، وإن كان الأشهر هو لفظ (التغريب) فيما أخذ لفظ (الاستغراب) معنى دراسة الغرب برؤية شرقية.

---

(١) ينظر: مقدمة في علم الاستغراب / ٥٦.

(٢) أثر الاستغراب في التربية والتعليم بالمغرب د. عبد الله الشارف: ، منشورات كلية الآداب بتطوان، ٢٠٠٠م.

(٣) الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر د. عبد الله الشارف: منشورات نادي الكتاب، تطوان، المغرب، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

(٤) الاستشراق والاستغراب د. محمود خليف حضير الحياني، / ٩، دار غيداء للنشر والتوزيع /٢٠١٣م.

وزاد إلى دلالتها معنى جديدا، هو التعبير عن الافتتان بالغرب وحضارته ومتابعة الغربيين في أنماط النظر والفكر والتصورات، وأقدم ما وجدناه من استعمال لفظ (الاستغراب) بهذا المعنى كان عند أديب العرب "مصطفى صادق الرافعي" في كتابه (تاريخ آداب العرب)[١] في أوائل القرن العشرين، فقد صدر هذا الكتاب (١٩١١م)، ثم عند د/"زكي مبارك" في أواخر الثلاثينيات في مجلة الرسالة، فقد كتب ضمن قصته عن (ليلى المريضة في العراق) هذه العبارة: "وأخذت ليلى تقلب الجرائد بحضور السيدة نجلاء، فرأت في السياسة الأسبوعية مقالة في رثاء أستاذ مستشرق اسمه "بول كازانوفا" كتبها أستاذ مستغرب اسمه "طه حسين"، وتدخل الشيخ دعّاس؛ ليشرح المراد من الاستغراب والاستشراق"[٢]، وأكمل القصة في العدد التالي فقال: "أفاض الشيخ دعاس في شرح الاستشراق والاستغراب، ففهمنا أن المستشرق هو الذي يدّعي علم الشرق، والمستغرب هو الذي يدّعي علم الغرب" [٣]، ومنذ ذلك الوقت انتشر هذا الاستعمال، حتى وجدناه عنوانًا لرسالة كتبها الشاعر "علي سرطاوي" من العراق، ونشرت في مجلة الرسالة المصرية، عنوانها (المستغربون)، حمل فيها حملة شديدة على المنبهرين بالغرب، وعرَّض فيها بـ "طه حسين" وأمثاله [٤].

ثم اضطرد استعمال اللفظ بهذا المعنى في كتابات المصلحين الإسلاميين منذ أوائل الخمسينيات، نذكر منهم: الشيخ "البشير الإبراهيمي" في مذكرة (بتاريخ ٢٠ مارس ١٩٥٣م) عَرَضَ فيها جهود جمعية العلماء الجزائريين، يقول: "لولا هذه الجمعية لضاع على العرب نصف عددهم، وهم ثلاثون مليونًا، هم سكّان المغرب العربي، وجرفهم تيّار الاستغراب والبربرة، ولولا هذه الجمعية

(١) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ١٨/١، دار الكتب العلمية،٢٠٠٦.
(٢) مجلة الرسالة، العدد ٢٤٠، بتاريخ ١٩٣٨/٢/٧م.
(٣) مجلة الرسالة، العدد ٢٤١، بتاريخ ١٩٣٨/٢/١٤م
(٤) ينظر: مجلة الرسالة، العدد ٨٣١، بتاريخ ١٩٤٩/٦/٦م.

لضاع على المسلمين هذا العدد من الملايين" [١]، ومنهم الأديب الكبير شيخ العربية أبو فهر "محمود شاكر" في مقاله (وهذه هي أخطارها) بتاريخ يناير ١٩٦٥م ضمن ردوده على "لويس عوض" في مجلة الرسالة[٢]، ثم شاعت الكلمة والوصف في كتابات الشيخ الأصولي د/ عبد العظيم الديب" في فصل من كتابه (منهج الغربيين في الكتابة عن التاريخ الإسلامي) أكتوبر ١٩٩٠م عنونه بقوله: "إلى المستغربين" [٣]، وقد استعملها المترجمون أيضًا بهذا المعنى، نذكر منهم د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، حين ترجم كتاب (وجهة العالم الإسلامي) للمستشرقيْن: هاملتون جيب، ولويس ماسينيون، وكان ذلك عام ١٩٣٤م[٤]، والأديب الكبير "عباس العقاد" حين ترجم مقتبسات من بحوث غربية ونشرها في كتابه (ما يقال عن الإسلام) وكان ذلك عام ١٩٦٤م [٥]، و"محمد كاظم السباق" حين ترجم كتاب (الحجاب) لأبي الأعلى المودودي" ، وإن كانت الغلبة في التعبير عن هذا المعنى قد حازتها ألفاظ: التغريب، التغرب، التفرنج ونحوها[٦].

إلى أن أضيف لكلمة "الاستغراب" معنى آخر بكتابات "حسن حنفي" في الثمانينات، وهي الكتابات التي تُوِّجت بمؤلفه (مقدمة في علم الاستغراب) والصادر عام (١٩٩١م)، وهو معنى نقيض "الاستشراق" ويهدف –كما أشرت

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، محمد البشير الإبراهيمي: ١٦١/٤.

(٢) ينظر المقال في كتابه: أباطيل وأسمار ١٧٧/١ ، وما بعدها.

(٣) المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، د. عبد العظيم الديب: / ٣٦ وما بعدها، ط١، مؤسسة أخبار اليوم، إدارة الكتب والمكتبات/١٩٩٠م.

(٤) ينظر: وجهة العالم الإسلامي، جب وماسينيون، ٤٢، ٤٣، وهنا أول ذكر للفظ الاستغراب، ولكنه انتشر بعد هذا في ثنايا الكتاب.

(٥) ينظر: ما يقال عن الإسلام، ضمن (موسوعة العقاد الإسلامية) عباس العقاد: ٣٣٧/٥.

(٦) ينظر :الحجاب، أبو الأعلى المودودي: / ١١٩،ط٢٠١٩/١م.

سابقا– إلى دراسة الغرب برؤية شرقية، وهذه الدعوة نفسها قديمة جدًا، لكنها لم تُسَمَّ بهذا الاسم قبل كتابات حنفي فيما أعلم، لكن هذا الاسم – لكونه مختصرًا وقريبًا من الظاهرة الثقافية الواسعة التأثير، وهي ظاهرة الاستشراق – لاقى قبولاً، وتلقفه بعد هذا عديد من المفكرين وإن خالفوا "حسن حنفي" في كل شيء تقريبًا إلا في ضرورة وحاجة الأمة لدراسة الغرب برؤية ذاتية معتزة بنفسها، وسرى استعمال الكلمة في مؤتمرات علمية، وندوات، وبحوث، ومقالات في الصحف، والمجلات العلمية والجماهيرية، واليوم صارت الكلمة عَلَمًا على هذا المعنى في غالب الأحوال.

وظيفة الاستغراب:

تمثلت وظيفة علم الاستغراب في العديد من النقاط أهمها:

١– فك عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر، والقضاء على مركب النقص لدى الأنا، ومركب العظمة لدى الآخر الغربي.

٢– تتمثل مهمته كذلك في القضاء على المركزية الأوروبية، والذي يكمن في بيان لهذا السؤال: كيف أخذ الوعي الأوروبي مركز الصدارة عبر التاريخ الحديث؟ فمهمة هذا العلم رد ثقافة الغرب إلى حدوده الطبيعية التي انتشرت من خلال سيطرته على أجهزة الإعلام، وهيمنته على وكالات الأنباء، ودور النشر الكبرى، ومراكز الأبحاث العلمية.

٣– ومن مهمته القضاء على ثنائية المركز والأطراف–علاقة المعلم بالتلميذ، والسيد بالعبد–على مستوى الثقافة والحضارة، فالغرب هو المعلم الأبدي، واللاغرب هو التلميذ الأبدي، فالعلاقة بينهما أحادية الطرف، أخذ مستمر في الثاني، وعطاء مستمر من الأول[١].

(١)– للمزيد ينظر: مقدمة في علم الاستغراب/٨٩.

المبحث الأول

مظاهر الاستغراب في البلاغة العربية:

توطئة: أقامت البلاغة لنفسها صرحا مشيدا، وقد أطل هذا الصرح على ما حوله من معارف، وألقى ظلاله على هذه المعارف ليشكلها، ويتشكل بها أيضا، عندما تحاول تلك المعارف أن تتطاول في البنيان؛ وهو ما أدى إلى وجود بلاغات متعددة لا بلاغة واحدة، وأن تكون هذه البلاغات في سياقاتها المختلفة متجاورة أحيانا، ومتجاوزة أحيانا أخرى لما قبلها، والتجاور والتجاوز لا يعنيان بالضرورة التناقض؛ بل التطور، والبلاغة بوصفها علما حق لها أن تتطور كغيرها من العلوم، وتطورها علامة صحة؛ ودليل حيوية، ومن صحته وحيويته تغيُّر مجال العمل الذي تبحث فيه، وما يتبعه من تغير في الأدوات الإجرائية الكاشفة عن هذا المجال، وهي في مراحل تطورها لا تعيش منعزلة عن غيرها من العلوم والمعارف، بل شكلت مع هذه العلوم والمعارف سياقا معرفيا للزمان والمكان اللذين مارست فيهما العمل، وكوّنت بحكم هذه السياقات المعرفية المتعددة تاريخا، وهو تاريخ ينم عن طموح وصلت فيه البلاغة قمة مجدها؛ إذ كوّنت إمبراطورية لها، وفي الوقت نفسه يكشف هذا التاريخ عن انحصار هذه البلاغة، حتى نجد من ينادي بدفن هذا العلم الميت أو المحتضر.

في ضوء ما سبق، كان بدهيا أن يتطور مفهوم البلاغة تطورا كبيرا؛ وأن تظهر تلك المصطلحات التي أثرت في الفكر البلاغي العربي ما بين مؤيد ومعارض، إذ قد يتسع باتساع طموحه، أو ينحسر، ويقبع في زاوية ضيقة، وهو في هذا وذاك لا ينشأ من فراغ؛ إنما تشكله بيئات ثقافية متنوعة، تسعى إلى تحديد مدلوله وفقا لمعارفها التي تنطلق منها، وتستمد هذه المعارف من علوم أخرى تتجاور معها، يقول العمري: "ومن الملاحظ عبر التاريخ أن علاقة البلاغة بالعلوم المجاورة علاقة معقدة؛ فهي– أي العلوم المجاورة– تمد البلاغة بالعتاد الذي تحتاج إليه حين تكون للبلاغة سلطة وهيبة، ثم تستفيد من هذه البلاغة في حل معضلاتها الخاصة كل في مجاله، ولكنها

ما إن تحس منها بخلل، أو وهن حتى تبادر إلى الإجهاز عليها، والاستيلاء على أطراف من أراضيها"[١] .

وفي الحقيقة نجد أنفسنا أمام شبكة من المفاهيم، بعض هذه المفاهيم حاول أن يرسم لها حدودا، تمكنها من الانتقال من المفهوم إلى الاصطلاح بالمعنى العلمي المتعارف عليه، لكن الانتقال من المفهوم إلى المصطلح؛ أعني من تحديد البلاغة بوصفها مصطلحا له حدود ليس بالأمر اليسير.

فكان لا بد من وقفة أمام هذا الخضم الهائل من تلك الدعوات، وبيان أثرها في البلاغة العربية، حيث أسهمت اللسانيات المعرفية والدلالة المعرفية بوجه خاص في فتح أبواب جديدة في تطوير البلاغة الغربية، وكذا البلاغة العربية الحديثة–كما يزعمون– والمعاصرة وتجديدها من جهة، ولقراءة التراث البلاغي العربي القديم من جهة ثانية، ويقصد بها أعمال الجرجاني، والسكاكي، والرازي، والقزويني، وحازم القرطاجني وغيرهم قراءة جديدة، قراءة تتوسل بالآليات والمفاهيم والأدوات التي أمدتنا بها العلوم والمعارف المعاصرة، وهي آليات معرفية وذهنية وتصورية، وآليات حجاجية، وتداولية بالخصوص.

من خلال ما سبق من عرض حول تلك القراءة الجديدة للبلاغة العربية، أقوم بعرض أهم ما أثير من جدل حول التراث البلاغي والدراسات المعاصرة من الحديث عن أهم مظاهر الاستغراب، والذي يتمثل في عنصرين هما: المقام البلاغي[٢]، والنسق البلاغي[٣].

---

(١)– أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة (دراسات وحوارات)، محمد العمري/١٣، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٣م.

(٢) – المقام البلاغي: يدور حول الظروف والسياقات الخارجية التي تسبق النص، أو تتبعه بشكل يؤثر في استقباله أو إنتاجه.

(٣) –النسق البلاغي: الذي يعنى بالبحث عن أنساق أخرى جديدة قادرة على تجاوز النسق البلاغي القديم دون أن تستغني عنه، وهذا من متطلبات تجديد البلاغة، فالمراد من الأنساق البلاغية: محاولة استعادة الأصول القديمة بطرق مختلفة قبل أن تبسط أنساقها الجديدة، وقد يراد به: الترتيب والتنسيق الحسن بين الظواهر البلاغية المتكاملة المناسبة لمقاييس عصرها الأدبية.

المطلب الأول

أثر الاستغراب في المقام البلاغي:

قبل أن أدلف في الحديث عن الاستغراب وأثره في المقام البلاغي، كان لا بد من طرح هذا السؤال: هل البلاغة العربية لم تكن تعرف فكرة مراعاة المقام وسماته؟ وإن كان هذا موجودا لدينا في التراث البلاغي، فما الذي أضافته الرؤى الغربية المعاصرة من جديد؟ وكيف يمكن أن يستفاد من هذا الجديد في فهم أعمق للمقام في تراثنا البلاغي؟ وللجواب عن هذا، أقوم بعرض موجز للمقام البلاغي وأنواعه عند الغربيين، ثم الحديث عن المقام في البلاغة العربية؛ ليتبين أثر الاستغراب في الدرس البلاغي، وبدأت الحديث بالغربيين؛ لمعرفة ما عند العرب في دراستهم للمقام.

المقام البلاغي عند علماء الغرب:

اختلفت وتعددت تعريفات (المقام البلاغي) في البلاغة المعاصرة عند مجموعة من الدارسين، وفحوى كلامهم أن المقام البلاغي هو: الوضع الذي يرى المتكلم ضرورة الاستجابة له بخطاب لمعالجته وتغييره، من خلال هذا التعريف تبين أن البلاغة المعاصرة ركزت على مقام التكلم، وهو الذي تنطبق عليه سمات المقام.

وقد ظهر الوعي بضرورة مراعاة المقام البلاغي في البلاغة اليونانية عند السفسطائيين الذين يُعدُّون من أوائل من كتب في البلاغة، وقد واجهوا نقدا ولوما؛ بسبب طريقتهم في مراعاة ما يتطلبه المقام بشكل يقوم على التلوّن، والتضليل، والخداع، فقد كانوا يعلمون الناس البلاغة بطريقة نفعية لا أخلاقية، بحيث كانوا يحرصون على تعليم الناس؛ كيف يقولون الكلام الذي يناسب المقام؛ ليحقق الإقناع، بغض النظر عن كون هذا المتعلم صاحب حق، أو صاحب باطل، وهذه هي الآفة الكبرى التي أثرت في الدرس البلاغي العربي.

وظهر هذا الوعي بمفهوم المقام، وضرورة مراعاته عند أرسطو(٣٢٢ ق.م) في تعريفه البلاغة، حيث عرفها بأنها" القدرة على معرفة وسائل الإقناع الممكنة في الأحوال المختلفة"[١].

فهو هنا يرى أن ثمة مقامات ومواقف مختلفة يمر بها المتكلم، وأن هذه المواقف تتطلب وسائل إقناع مناسبة؛ لكي يستطيع المتكلم تحقيق القصد المنشود من خطابه، وهذا يعني أن هذه الوسائل ستختلف وتتباين باختلاف المواقف والمقامات التي يمر بها المتكلم.

عناصر المقام في البلاغة الغربية:

الأثر الذي تحدثه البلاغة عند المنصفين من الغربيين، يستلزم توافر ثلاثة عناصر مهمة؛ لكي تنجز البلاغة فعلها، وتحقق هدفها المنشود، هذه العناصر الثلاثة هي:(المتكلم، والرسالة، والجمهور)، ويرى أرسطو أن كل عنصر من هذه العناصر يُفترض أن يتضمن أمرا يسهم بشكل كبير في تحقيق الأثر البلاغي، حيث يفترض أن توجد في المتكلم المصداقية الكافية، وأن يتضمن النص الحجج المنطقية الملائمة، وأن ينتُج عن هذا النص التأثر العاطفي عند الجمهور[٢].

إن هذا الأمر يدل على أن البلاغة ليست مجرد أقوال أو كلمات، وإنما هي حدث بلاغي يتضمن أكثر من عنصر يسهم في صناعة الأثر البلاغي، هذه العناصر بعضها داخل النص، وبعضها خارجه، والبلاغة تعد فعلا اتصاليا يتضمن أركان العملية الاتصالية الأساسية (المرسل، والرسالة، والمستقبل)، وأن نجاح هذا الاتصال مرهون بأن تتحقق المهمة المنشودة على أكمل وجه في كل ركن من هذه الأركان الثلاثة، فهذا المنظور الاتصالي الذي استحضرته البلاغة منذ ميلادها، دفع بها مؤخرا إلى الانتقال في عدد كبير

(١)- الخطابة، أرسطو /٩، حققه وعلق عليه: عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٩م.

(٢)- ينظر: الخطابة، أرسطو /٩.

من الجامعات الأوروبية والأمريكية من أقسام اللغة، والأدب والنقد إلى أقسام الإعلام والاتصال.

إن النظر إلى البلاغة على أنها حدث بلاغي تضمن أركان الاتصال الثلاثة ترك أثره الكبير على كثير من التصورات، والرؤى البلاغية التي يتناولها باحثو البلاغة المعاصرة؛ بما في ذلك فكرة المقام؛ حيث يُنظر إلى الفعل البلاغي على أنه فعل اتصالي يتضمن الآتي: (الفعل البلاغي ، مقام تكلم، تعبير، مقام استقبال)، هذا التصور يوجه كثيرا من أفكار البلاغة حول المقام، ومن هنا ظهر الاهتمام بالمقام في البلاغة المعاصرة في صورتين:

الصورة الأولى: **مقام الاستقبال والفهم** (**المقام التداولي**):

يحاول مقام الفهم، أو المقام التداولي–الذي يهتم بدراسة البلاغة، والتداولية–أن ينظر إلى دور المقام في فهم الكلام، وإدراك معانيه ومراميه.

وتدرس البلاغة المعاصرة المقام التداولي غالبا في دراستها (المعنى)؛ والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، كيف لأي رسالة أن تكون مصدرا للمعنى عند متلقيها؟ وهذا سؤال يأخذ أهمية مركزية عند دارسي البلاغة، وفي ذلك يقرر المؤلف تحت عنوان (المعنى والسياق) أن اللغة إنما تأخذ معناها من خلال سياقها، وأن أي دراسة للغة معزولة عن السياق الخارجي المصاحب تعطي معنى مضلّلا، ويغلب في هذه الصورة –مقام الاستقبال(الفهم)–استعمال كلمة (السياق Context) بدلا من المقام، كما تذكر بعض الدراسات الإنجليزية، وبعض الدراسات العربية[1].

(١) ينظر: مفهوم البراجماتية ونظرية المقام، منال النجار/٧٣، ضمن كتاب: التداوليات (علم استعمال اللغة)، تنسيق وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن،٢٠١٤م، وينظر: المقام في البلاغة العربية (دارسة تداولية)/١١، مجلة الآداب، جامعة بنها، يوليو ٢٠١٧م.

الصورة الثانية: **مقام التكلّم** (**المقام البلاغي**):

أما مقام التكلم، أو المقام البلاغي (الذي يختص بدراسته البلاغة)، فيدرس دور المقام في إنشاء النص وإنتاجه، وأثر ذلك في صياغة النص؛ ليحقق الأثر المنشود، فالمقام التداولي يُنظر فيه إلى المقام بعد وجود النص، في حين أن المقام البلاغي يُنظر فيه إلى المقام قبل وأثناء إنشاء النص. وتعد هذه الصورة (الثانية) هي الأكثر ظهورا وتجليا في البلاغة المعاصرة، حيث تدرس البلاغة المعاصرة مقام التكلم والإنتاج؛ للتأكيد على ضرورة استحضاره، وأخذه في عين الاعتبار عند إنشاء الخطاب البلاغي؛ كي يحقق الخطاب الأثر المنشود، ويُلحظ التزام ذكر الصفة (البلاغي) مع هذا النوع من المقام، فيقال عنه (المقام البلاغي The Rhetorical Situation)؛ لتمييزه ربما عن الصورة الأولى التي ترتبط بمقام الفهم والاستقبال[1].

سمات المقام البلاغي عند الغرب:

من أبرز السمات التي اتفق عليها الباحثون الغربيون في البلاغة حول فكرة المقام البلاغي ما يأتي:

١- المقام البلاغي سابق على الخطاب ويسهم في وجوده، حيث يؤكد "بيتزر Lloyd Bitzer" على أن البلاغة مقامية، وأن المقام ذو صلة وثيقة بظروف إنتاج الخطاب البلاغي، وسابق على وجوده؛ لأن المقام هو الذي يستدعي الخطاب إلى الوجود، ولهذا يتأثر الخطاب بالمقام البلاغي الذي يسهم في إنشائه.

٢- المقام البلاغي هو العنصر المؤثر في صوغ الكلام.

يحاول "بيتزر Bitzer" التأكيد على أن المقام البلاغي هو فقط ذلك العنصر الذي يؤثر في صياغات النص، وتشكيله اللغوي؛ لذلك يفرق بين السياق والمقام، فكل الرسائل تحدث في سياق، ولكن الذي يتطلب استجابة بلاغية هو

(١) ينظر: المقام البلاغي بين التراث العربي والدراسات البلاغية المعاصرة، إبراهيم بن منصور التركي/٢٣٩، مجلة فصول(٤/٢٦) عدد ١٠٤ خريف٢٠١٨م.

المقام البلاغي وحده، والمقصود هنا أن السياق الخارجي قد يتضمن مجموعة من الأحداث والوقائع المتعددة، ولكن هذه الأحداث لا تُكَون مقاما بلاغيا إلا إذا كانت ذات أثر على صوغ الخطاب البلاغي.

٣- يصاغ الكلام طبقا لمتطلبات مقام إنشائه.

تتحدث البلاغة المعاصرة عن أن مقام الإنشاء هو الذي يحدد للمتكلم أو للبليغ طبيعة الخيارات البلاغية التي يحتاجها النص، وعلى البليغ أن يضمن كلامه هذه الخيارات البلاغية، وهذا منصوص عليه في تعريف البلاغة عند أرسطو(١).

المقام البلاغي بين البلاغة العربية والغربية:

بعد هذه التطوافة السريعة حول المقام البلاغي عند الغربيين، تبين أنهم أخذوا القديم، وألبسوه ثوبا آخر، ولم يأتوا بشيء يصح أن يطلق عليه تجديد وتطوير، سوى المصطلحات الجديدة، ومن الإنصاف أن يحمد لهم هذا الاهتمام الكبير بدراسة المقام البلاغي، وبيان أهميته في البلاغة، لكن الوعي العربي أعمق في تناوله فكرة المقام البلاغي-وهذا واضح جدا لمن درس البلاغة العربية، ولا يتسع المقام لسرده-، ولا بد من إلقاء الضوء على بعض وجوه الاتفاق والافتراق بين التصورين العربي والغربي.

ومن أوجه التشابه بينهما في الأفكار (نوعا المقام): ففي البلاغة العربية ظهر المقام بهاتين الصورتين التي ظهرت في الغرب وهما: مقام الفهم /الاستقبال (المقام التداولي)، الذي ينظر فيه إلى دور المقام في فهم المعاني، كما اهتم التراث البلاغي العربي بمقام الإنتاج/ الإنشاء (المقام البلاغي)، وهي تلك النظرة التي ينبغي أن يستحضرها البليغ عند إنشاء الكلام؛ لمراعاة ما يتطلبه من صياغة لغوية فصيحة موافقة للقياس اللغوي.

وفيما يتعلق بمقام الفهم الذي يستعان به على فهم الكلام، فقد تناوله عدد من الدارسين، حيث أشار الدكتور "تمام حسان" إلى تجليات هذا المقام في التراث

(١) ينظر: المقام البلاغي بين التراث العربي والدراسات البلاغية المعاصرة /٢٤٠.

البلاغي العربي في كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) مؤكدا أن العرب قد تفوقوا في ذلك على غيرهم – من أشهر شواهد مقام الفهم في البلاغة العربية (قرينة الحال) في المجاز، حيث يستعان بها على فهم الكلام إما على الحقيقة أو المجاز– ، فهو يعدّ البلاغيين العرب متقدمين ألف سنة على زمانهم؛ لأن الاعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسين من أسس تحليل المعنى، ويعد الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة [١] .

وهذا ما أشار إليه الدكتور "شكري الطوانسي" في بحث له عن (المقام في البلاغة العربية، دراسة تداولية)، حيث حاولت هذه الدراسة أن تعالج ما جاء في البلاغة العربية من تصورات حول المقامات، أو الأحوال، وما يرتبط بها... مستعينة بالمقاربة التداولية التي تُعنى بكيفية استعمال اللغة في السياقات، أو المقامات المختلفة [٢]، مما يدل على أن المقام في البلاغة العربية هو الأساس في كشف المعنى، وقد تحدث البلاغيون العرب قديما عن ذلك في كتبهم، حتى إنهم ذكروا معنى المعنى(المعاني الثواني)[٣]، وأهميته في عملية التواصل.

وتؤكد هذا الأمر الباحثة "منال النجار"، حيث تقول: " لو اطَّلع الغرب على النظرية البلاغية العربية لكانت البرغماتية(التداولية) على غير ما هي عليه اليوم، ولاحتاجت إلى سنوات أقل حتى تصل إلى ما وصلت إليه الآن، أما مصطلح السياق، فكان حضوره قويا في النص العربي القديم تحت

---

(١) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان/٣٣٧، دار الثقافة، الدار البيضاء ١٩٩٤م.

(٢) للمزيد ينظر: المقام في البلاغة العربية "دراسة تداولية"، شكري الطوانسي/٥.

(٣) يقصد بالمعاني الثواني عند الإمام: "المعاني الأُوَلُ المفهومةُ من أنْفُس الألفاظِ هي المَعارِضُ والوشْيُ والحَلْيُ وأشباهُ ذلكَ، والمعاني الثَّواني: التي يُومَأُ إليها بتلكَ المعاني، هي التي تُكْسَى تلك المعارضَ، وتزين بذلك الوشي والحلي"(دلائل الإعجاز/٢٦٤).

مسمى(المقام)، وكما أن السياق هو المحور الذي تدور حوله البرغماتية (التداولية)، فالمقام هو المحور الذي تدور حوله البلاغة العربية"[١].

ومن أوجه التشابه بينهما(الفكر العربي والغربي) في الأفكار: (الوعي بفكرة مناسبة المقام)، حيث إن الوعي بالمقام وضرورة مراعاته متجذّر في التراث العربي وبخاصة البلاغة العربية، وقضية مراعاة الكلام لمقتضى الحال تعد من القضايا الجوهرية التي حضرت في الوعي العربي القديم، حيث تظهر في نقد النابغة الذبياني قول حسان بن ثابت-ﷺ-:

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بِالضُحى ... وَأَسيافُنا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَما

وَلَدنا بَني العَنقاءِ وَابني مُحَرِّقٍ ... فَأَكرِم بِنا خالاً وَأَكرِم بِنا اِبنَما[٢]

فكان تعليق النابغة على بيتي"حسان": "أنت شاعر، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك"[٣] .

فعلى قصر هذا التعليق إلا أن النابغة يتصور أن هذه القصيدة تقال في سياق الفخر بالقبيلة، وأن إقلال ما يدل على الشجاعة، وقلة الأواني الدالة على الكرم، والافتخار بالأولاد لا الآباء، هو مما يخالف ما تعودت عليه العرب في سياق الفخر، وهذا ما يعني في نظر النابغة أن "حسان بن ثابت" لم يطابق ما تقتضيه حال الفخر في صوغ هذين البيتين.

والأعجب من هذا كله ما أكده "بشر بن المعتمر(٢١٠هـ)" على ضرورة مراعاة أحوال المتكلمين، وأتى على جميع ما قال به الغربيون، وتفوق عليهم بهذا البيان الفصيح الماتع يقول: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار

---

(١) مفهوم البراجماتيه ونظرية المقام، منال النجار/٧٤،ط١، مؤسسة حورس الدولية.

(٢)-ينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني،٩/ ٣٨٤ -طبعة دار الفكر.

(٣) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، المرزباني/٧٠، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر.

المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات، فإن كان الخطيب متكلما تجنّب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إن عبَّر عن شيء من صناعة الكلام واصفا أو مجيبا أو سائلا، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحنّ، وبها أشغف"[١]. فلا شك أن التراث العربي كان يهتم جيدا بقضية الوعي بفكرة مناسبة المقام.

أما عن الأفكار التي أضافتها البلاغة المعاصرة:

ادعى بعض الباحثين[٢] أن البلاغة المعاصرة استقلت بأمور حول المقام، حين كتب في مقالة له في مجلة فصول قائلا: "من الأشياء التي لم ينص عليها العلماء صراحة في تراثنا البلاغي، ولكن يمكن استنتاجها واستنباطها من كلامهم:

١- المقام هو العنصر المؤثر في الكلام.

٢- مراعاة المقام لتغيير المقام.

٣- المقام ذهني وذاتي لا موضوعي وخارجي.

٤- من عناصر المقام: الداعي والجمهور" [٣].

هذه العناصر تحتاج إلى وقفة، ففيها نظر؛ حيث إن المقام في البلاغة العربية هو المؤثر في النص، وهو الذي يراعي أحوال المخاطبين، ولا بد من متكلم ومخاطب (الجمهور)، وفي الوقت نفسه هو ذاتي، وحيث إن المقام في البلاغة العربية تستهدف صناعة مقام جديد، فهذا المقام الجديد يتحقق عبر

---

(١) البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ ١٣١/١، دار ومكتبة الهلال، بيروت : ١٤٢٣ هـ.

(٢) إبراهيم بن منصور التركي: أستاذ النقد الأدبي، قسم اللغة العربية، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم، السعودية.

(٣) المقام البلاغي بين التراث والدراسات البلاغية المعاصرة، إبراهيم بن منصور٢٥٣، مجلة فصول، مجلد /٤/٢٦،عدد ١٠٤، ٢٠١٨م.

تكييف الخطاب اللغوي وصوغه، طبقا لما يتناسب مع المقام الأول؛ لإحداث الأثر المطلوب في صناعة المقام الجديد.

وخير شاهد على هذا ما جاء في قصة "بشار بن برد" وجاريته الرباب، حيث عوتب على سهولة شعره في مخاطبته جاريته بقوله:

رَبَابـــــةُ رَبَّـــــةُ البيـــــتِ تَصُـــبُ الخـــلَّ فـــي الزَّيـــتِ

لَهَـــا عَشْـــرُ دَجَاجَـــاتٍ وديـــكٌ حَسَـــنُ الصَّـــوْتِ

فقال بشار: " ربابة هذه جارية لي، وأنا لا آكل البيض من السوق، فربابة هذه لها عشر دجاجات وديك، فهي تجمع عليّ هذا البيض وتحضره لي، فكان قولي لها أحبّ إليها وأحسن عندها من: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل"(١).

تبين من خلال ما سبق:

أن الدراسات البلاغية المعاصرة أظهرت بوضوح الربط بين الكلام ومقاماته؛ لتحديد النوع التعبيري الذي ينتمي إليه هذا الكلام، وأظهرت –أيضا– أصالة التراث البلاغي العربي بطريقة غير مباشرة عند الموازنة بالدرس البلاغي الحديث، وظهر ذلك جليا في تحليل النصوص، وهذه الحقيقة تعطي حجم الموروث النقدي عند العرب، حيث إن التفاعل الحضاري الثقافي بين الأمم كان أهم سبب لدخول الكثير من المصطلحات الغربية، ومن ثمّ الاتجاهات النقدية الغربية في النقد العربي الحديث، وهذا جانب خطير؛ لأن النقد الأدبي يعتمد بالدرجة الأولى على التذوق، والأحكام النقدية في أساسها أحكام ذوقية.

(١) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، المرزباني/٣١٦، وينظر: معاهد التنصيص على شروح التلخيص، عبدالرحيم العباسي ١ /٢٩٥، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، عالم الكتب.

المطلب الثاني

أثر الاستغراب في النسق البلاغي[1]:

من المسَّلم به أن الأنساق البلاغية القديمة تتميز بنوع من التكامل المناسب للمقاييس الأدبية في عصرها، حتى إن بدت في العصور اللاحقة–عند بعض الحداثيين–غير قادرة على استيعاب الظواهر البلاغية.

فكان من مظاهر الاستغراب ما قام به بعض دعاة التجديد للبلاغة من البحث عن أنساق أخرى جديدة قادرة على تجاوز النسق البلاغي القديم؛ لكن دون أن تستغني عن هذا القديم، وهو ما نلمسه في جميع محاولات التجديد التي تعود دائما إلى الأصول؛ لتستعيدها بطرق مختلفة قبل أن تبسط في أنساقها الجديدة.

وتعد العودة إلى الأصول البلاغية الأولى، وبخاصة فيما يتعلق بعلم البيان، أو بلاغة الصور، أكثر من ضرورية لاعتبارات عدة؛ مثل تأثرها بالبلاغة الأرسطية التي ألقت بظلالها على البلاغة القديمة والحديثة؛ فقد أثرت فلسفة أرسطو في البلاغة المعاصرة التي يُطلق عليها البلاغة الجديدة؛ فيمكننا الحديث عن مؤلفين يحملان في عنوانيهما مصطلح (بلاغة) مصحوبة بنعت (الجديدة)، ويتعلق الأمر بكتاب (مصنف في الحجاج: البلاغة الجديدة) لـ "شايم بيرلمان، ولوسي أولبيرايت تيتيكا ١٩٥٨م، وكتاب:(البلاغة العامة) لـ مجموعة "مو" أو" ليج"؛ حيث ينطلق الأول في تحليله من الاستعمال الحجاجي للخطاب، انطلاقا من الوسائل المنطقية، فالبلاغة بالنسبة إلى "بيرلمان" ليست سوى مرادف للحجاج ومعادل له؛ لهذا أراد مؤلفا كتاب (مصنف في الحجاج: البلاغة الجديدة) لكاتبهما أن يتجها اتجاها فلسفيا مستمدا من تنظيرات أرسطو البلاغية والمنطقية.

---

(١)– ينظر: المراد منه ص ٢٠.

أما الاتجاه الثاني: فهو على العكس من هذا، فقد اتخذ هدفه التحليلي لصور الأسلوب التي تعتمدها اللغة الشعرية؛ حيث كرَّس دراسته للبحث عن الأدبية، أو علم الأدب؛ ليصل إلى شعرية أسلوبية بتقاليد بنيوية وسيميائية(١).

من هذا المنطلق تبين أن البلاغة العربية تأثرت تأثرا شديدا؛ وفقا لتلك النظرة التي تبدو فيها البلاغة الجديدة موزعة بين منحيين: المنطقي الحجاجي: الذي يستهدف الإقناع، والجمالي: الذي يستهدف الوظيفة الشعرية الجمالية للغة، فكان ذلك من مظاهر الاستغراب الواضحة؛ لتأثرها بالبلاغة والفلسفة الأرسطية.

ومن مظاهر التأثر: ما أفضى بـ "أفلاطون" إلى تبني رأي مزدوج عن البلاغة، فأطلق عليه (بلاغة أفلاطون المزدوجة): حيث تعرض أفلاطون في محاورتيه: "جورجياس Gorgias" و" فيدروس Phedre" إلى البلاغة والاستعمال المزدوج لها؛ ومن ثم فهو يعالج بلاغتين: بلاغة فاسدة، وأخرى جيدة"(٢). وأذكرها بإيجاز شديد؛ ليتضح المراد للقارئ حيث تنقسم محاورة جورجياس إلى محاورات ثلاث فرعية:

تدور المحاورة الأولى: بين سقراط وجورجياس، وهو معلم بلاغة، وأحد أشهر السفسطائيين اليونان، وقد دار النقاش حول تعريف جورجياس للبلاغة وتحديده لماهيتها وخصائصها ووظيفتها، وقد عرَّفها بأنها:" القدرة على إقناع الناس بواسطة الكلام، القضاة في محاكمهم، الشيوخ في مجلسهم، وفي الجمعية العمومية، وكذلك في كل اجتماع آخر يجتمع فيه المواطنون، أما

(١) ينظر: تحولات النسق البلاغي الغربي بين التراث والتجديد، حسين خالفي/٢٣٨، مجلة فصول م (١/٢٦) عدد/١٠١، خريف ٢٠١٧.

(٢) ينظر: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، رولان بارث/٢٨، ترجمة: عمر أوكان، رؤية للنشر، القاهرة ٢٠١١م.

هدف هذه البلاغة، فهو السيطرة على المخاطبين وتسخيرهم لمصلحة حائز البلاغة"[١] .

وكانت المحاورة الثانية: بين سقراط وبولس أحد معلمي البلاغة، وقد دار النقاش بينهما حول ما إذا كانت البلاغة فنا أم تقنية[٢].

أما المحاورة الثالثة: فكان طرفاها سقراط وكاليكاليس حول رأي الأخير في أن البلاغة مهمة ما دامت تجلب اللذة لمن يمتلكها، ويرى أن اللذة هي غاية الحياة، وهو يوافق جورجياس في تعريف البلاغة؛ بل يضيف أنها التي تضمن إخضاع الضعفاء لسيطرة الأقوياء؛ لكن سقراط يحاول باستمرار تفنيد آرائه هذه" [٣]. من خلال هذه المحاورات تبين مدى التأثير الغربي في النسق البلاغي العربي.

ومن هنا يمكن القول:

إن البلاغة العربية تأثرت تأثرا كبيرا من خلال هذين المظهرين؛ مما كان له الأثر البالغ في ظهور المصطلحات الغربية بشكل كبير، والتي كانت سببا في ظهور ما يسمى بـ (أزمة المصطلح النقدي) لدى الباحثين، وبخاصة الذين يضعون قدما في المشرق العربي، وقدما في الغرب الأوروبي والأمريكي؛ مما أدى إلى التناقضات القائمة والمستمرة عند الحداثيين العرب؛ حيث الفشل في نقل المصطلح النقدي إلى العربية من ناحية، أو فشل فهم دلالته من جانب المتلقي من ناحية أخرى، دون أن نعترف في شجاعة بأن الأزمة ليست أزمة مصطلح، بل أزمة واقعين ثقافيين، وحضارتين مختلفتين[٤].

---

(١) ينظر: موقف أفلاطون من البلاغة من خلال محاورتي جورجياس وفيدروس، عماد عبداللطيف/٢٣٠، مجلد٥، عدد٣، أكتوبر ٢٠٠٨م.

(٢) السابق/٢٣٠.

(٣) ينظر: موقف أفلاطون من البلاغة /٢٣٠.

(٤) ينظر: المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، تأليف / عبدالعزيز حموده/٣٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة ١٩٩٨م.

المبحث الثاني

أثر الاستغراب في المصطلحات البلاغية العربية:

يعد تحديد مفهوم المصطلح العلمي على درجة كبيرة من الأهمية؛ إذ هو أهم ما يشغل بال الباحث في تاريخ العلوم بحثا يقوم على رصد الحقائق والظواهر العلمية تاريخا للكشف عن مراحل التطور المختلفة في نشأة العلوم. وفي حقيقة الأمر، تبين أن اختلاف ثقافات البلاغيين، وتنوعها بالإضافة إلى التطور الذي تحصله العلوم، فتتطور تبعا له بعض مفاهيم مصطلحاتها، يعدان من أهم الأسباب لما يكتنف المصطلحات من غموض في تحديد مفهوماتها ودلالاتها، ومن ثمّ كان على الدارس أن يتوخى الدقة في تحديد مفهوم كل مصطلح، وحدود دلالته؛ حتى لا يتعرض لجوانب من الخلط في دراسته. ولا يخفى الدور الذي قام به علماء البلاغة العربية الأفذاذ الذين أقاموا البلاغة العربية، حتى أصبحت علما قائما بذاته؛ له حدّه وقضاياه ومفرداته ومصطلحاته، ابتداء من الجاحظ الذي فتح باب التأليف والتصنيف البلاغي، ومرورا بـ "ابن المعتز"، و"قدامة بن جعفر"، و"عبدالقاهر الجرجاني"، والزمخشري" الذي فصل بين علمي البيان والمعاني، وانتهاء إلى "السكاكي" الذي جمع إبداعات السابقين عليه، وأبدع في تبويبها وتقسيمها وتفريعها بأسلوب ينم عن قدرته المنطقية(١).

وليس المراد مما تقدم حصر جهود البلاغيين، ولكن الغاية هو التنويه إلى تأصيل الدرس البلاغي بمصطلحاته عند البلاغيين العرب، وعلى الرغم من ذلك إلا أن المصطلح البلاغي ما زال يعاني من إشكاليات عدة، تتمثل في اختلاف البلاغيين في المسميات أو المصطلحات، واتفاقهم على دلالتها؛ مما يؤثر سلبا أو إيجابا على قيمة المصطلح وتأثيره الكبير في ذهن القارئ(٢) .

---

(١) ينظر: إشكالية المصطلح البلاغي، عمر عبدالهادي عتيق/١١٦، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، عدد٣، نيسان ٢٠٠٤م.

(٢)- ينظر: إشكالية المصطلح البلاغي، عمر عبدالهادي عتيق /١١٦.

ومن ثمّ فإن (معجم المصطلحات البلاغية وتطورها) الذي ضم ألف مصطلح ومائة، محاولة أريد بها وضع معجم تأريخي لهذا الفن الذي لم يهرم، ولم يحترق، وهو معجم يقوم على ترتيب الأنواع(المصطلحات) ترتيبا هجائيا؛ لتسهل مراجعة النوع، وجمع أجزائه في مادة واحدة، والإشارة إليها إذا جاءت منفردة، وجمع الآراء المختلفة في الفن الواحد؛ لتسهل معرفة أول من بحث فيه، وينتفع مؤرخ البلاغة ومن تعنيه المقارنة بين الفنون عند العرب وغيرهم من الأقوام، كالفرس واليونان والهنود الذين قيل إن لهم أثرا كبيرا في نشأة البلاغة العربية وتطورها، وما هو بالأثر الكبير حينما يرجع الباحث إلى هذا المعجم، ويرى نشأة الفن وتطوره خلال القرون، وارتباط مصطلحات البلاغة بالمتقدمين منذ عهد الصحابة– رضوان الله عليهم– واللغويين والنحاة الأوائل، كالخليل بن أحمد، وسيبويه، والأصمعي، وأبي عبيدة، والفراء، وغيرهم ممن لم يدرسوا بلاغة أرسطو، أو يقرأوا صحف الفرس والهنود [١] .

ضرورة الاصطلاح على معجم بلاغي:

إن استخدام المصطلح التراثي البلاغي في الدراسات الحديثة بدلالة واحدة، يكشف عن حيوية المصطلح، وقدرته على الحياة، والنهوض بما يقتضيه الدرس البلاغي الحديث، وهذا ما يؤكد على تجسيد التواصل بين التراث والحداثة، فقد يطرأ على بعض المصطلحات والتسميات البلاغية التراثية تطور أو تغيّر يؤدي إلى نسخ الدلالة الأولى وتبني الدلالة الجديدة.

وخير شاهد على هذا دلالة مصطلح (المجاز)، فالمراد به (مجاز القرآن) لأبي عبيدة (المعنى اللغوي للكلمة، أو المدخل إلى تفسير الآيات) [٢]، لكن دلالة مصطلح (المجاز) بعد "أبي عبيدة" هي قسيم الحقيقة، ولا خلاف بين

(١) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د/ أحمد مطلوب١/٨، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣ م.

(٢) ينظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى ١/١٨، علق عليه، محمد فؤاد سزكين، ط٢، مؤسسة الرسالة ١٩٨١م.

البلاغيين في ذلك، ولا يقدح هذا التطور أو التغيّير في الدرس البلاغي؛ فهو نتيجة حتمية لنضوج الدراسات البيانية، أما عن استخدام المصطلح بدلالات مختلفة ممتدة عبر قرون من الزمان، ووجود صدى لها في الدراسات الحديثة، فهو أمر يدعونا إلى اليقظة في استخدام المصطلح، ويقتضي منا الاصطلاح على معجم بلاغي يحدد المفاهيم البلاغية، ويمنع الغموض –مثل بعض المصطلحات في الدراسات الحديثة– والازدواجية والتعددية، ويخلِّص الدراسات البلاغية المعاصرة من صدى التباين الدلالي للمصطلح الواحد ومن تعدد المسميات.

وقد لا يقصد من تعدد المصطلح البلاغي إلا ضربا من التلاعب اللفظي، ورغبة في التفرد بالتسمية، وخير شاهد على هذه الحقبة التي شهدت ترجمة كتابي أرسطو (الخطابة) و(الشعر) إلى العربية، فهذه الترجمة وما شفعت به من تعليقات لم تفد النقاد كثيرا، ولا نكاد نجد ناقدا يتخذها أساسا في نقده، وإنما هي آراء تعرض، وأقوال تذكر في كتب الفلاسفة والأدباء المتأثرين بالثقافات الأجنبية؛ لأجل ذلك لم يكن التأثير الأجنبي تيارا مستقلا في هذه الدراسة، وإن وجّه التيارات الأخرى أحيانا، وأفادت منه في بعض القضايا [1].

تعدد المصطلح في ميزان النقد: (**أسباب تعدد المصطلحات**):

من سلبيات تعدد المصطلح أنه قد يحجم المتلقي (الباحث) عن دراسة ظاهرة فنية ما؛ فرارا من تعددية المصطلح، وخلاصا من المساءلة، وبخاصة في أبحاث الدراسات العليا التي تقتضي دقة وموضوعية وشفافية، ولا يخفى أن المبدع بريء من قضية تعدد المصطلح، في حين تنحصر المسؤولية في المتلقي الناقد الذي تقع على عاتقه مسؤولية وضع المصطلح وفق مقتضيات الظاهرة الفنية.

(١) ينظر: البلاغة تطور وتاريخ ، د/ شوقي ضيف/ ٢٣٥، ط٩، دار المعارف، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية.

فعندما يغيب التواصل الفني والدلالي بين المسمى والمضمون، وحينما لا يقدّم البلاغيون أو الباحثون تعليلا لمسمياتهم؛ لأن الأمر لا يعدو رغبة في التفرد بالمسمى، وإبرازا للذات الناقدة، وبخاصة حينما تغيب المسوغات الفكرية والرؤى المنهجية، فتعدد المصطلح النقدي أفرزته أطر ثقافية ومعرفية مختلفة عن أطرنا الثقافية والمعرفية في العالم العربي، وهذه حقيقة يجب على الحداثيين العرب التسليم بها؛ لنخرج من الأزمة، بدلا من اتهام كل من يختلف مع الحداثة بالجهل والتخلف، بل تعدى الأمر إلى اتهام البلاغيين القدماء بالجمود في فكرهم وتقسيماتهم.

يقول د/ عبدالعزيز حمودة: "إن جذور أزمة الحداثة العربية أعمق من ذلك بكثير، فالمسألة ليست مصطلحا نقديا مستوردا نتوه في تحديد دلالاته، ولكنها أزمة فكر بالدرجة الأولى، أزمة ثقافة قبل كل شيء آخر"[1].

ومن إيجابيات تعدد المصطلحات:

أن التعددية للمصطلح الواحد قد تكون أعمق ومسوغة وموضوعية، حينما تنطلق من اختلاف رؤية المتلقي الناقد للنص من حيث آلية المعالجة، وكيفية التشخيص لبنية النص، ومثال ذلك بوضوح (قضية اللفظ والمعنى)، وهي من أبرز القضايا البلاغية التي اتخذت مسميات عدة، فقد طرأ عليها تطور في آلية البحث اقتضى تغيّر المسمى إلى (الشكل والمضمون)؛ إذ أصبح مصطلح(الشكل) يحمل طاقة دلالية أوسع وأعمق مما تعنيه كلمة (اللفظ)، فهو يختزل منهجا نقديا قائما بذاته، وكذلك مصطلح (المضمون) في مقابل كلمة (المعنى)؛ فإنها تعطي السعة نفسها في دلالتها الدقيقة.

في حين ترى أن الأمر لا يقف عند هذا التطور(الشكل والمضمون)، بل تميل بعض الدراسات إلى استخدام مصطلح (الأداء والمحتوى) بدلا من

(١) المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، عبدالعزيز حمودة/ ٣٤، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٨م.

الشكل والمضمون، فتعدد المسميات التي تعود إلى أصل واحد ناجم عن آليات منهجية مختلفة في دراسة النص، أما التعددية في الدراسات التراثية، فلم تنجم عن اختلاف رؤية المتلقي الناقد، إذ لا نجد فرقا يذكر في آليات المعاينة والمعالجة، وكذلك الحال في مسميات (علم الأسلوب) في الدراسات المعاصرة، فقد اتخذ مسميات مختلفة، نحو: (فن الشعر)، و(سيميولوجية العمل الأدبي)، و(نظرية النص)، وهذا لا يعني وجود علوم مختلفة بقدر ما يعكس الظروف التي تمر بها دراسات الموضوع الأدبي، ونقطة الارتكاز الجوهرية في كل دراسة، والطابع المميز لها[١] .

المصطلح البلاغي بين الاتفاق والاختلاف:

قد يتفق المصطلح البلاغي في الدلالة، لكنه يختلف في المسمى، هذا ما نراه بوضوح في البلاغة –قديما وحديثا–، وأذكر مثالا لمصطلح قديم، ومثالا لمصطلح حديث؛ حتى تتضح الرؤية من التأثير بالمصطلح الغربي، وبيان أثر ذلك في البلاغة العربية، فمن المصطلحات القديمة لون من ألوان علم البيان، ومن المصطلحات الحديثة (الأيديولوجيا)، وجعلته مبحثا ختمت به الدراسة.

أولا: من المصطلحات القديمة: أشير إلى نوع من أنواع التشبيه، يقول أبو العباس(المتوفى: ٢٨٥هـ): "والعرب تشبه على أربعة أضرب: فتشبيه مفرط، وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه: وهو أخشن الكلام"[٢] .

حيث اختلف البلاغيون في تسمية نوع من أنواع التشبيه، يتقدم فيه المشبه به، ويكون منفيا بـ (ما) في الغالب، ويتأخر المشبه، ويكون مثبتا ومسبوقا

---

(١) ينظر: علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل/١٢٧، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٢م.

(٢) الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس ٩٥/٣، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

بحرف الجر (الباء)، واسم التفضيل على وزن (أفعل)، وقد اختلفت التسميات لهذا النوع من التشبيه، لكن الدلالة واحدة.

وهذا النوع من التشبيه يشكل انحرافا أسلوبيا عن الأنماط التشبيهية المألوفة، الذي يلازم النفي المشبه به، كما يلازم الإثبات المشبه، فهذه الملازمة تضع التشبيه في دائرة الانزياح الأسلوبي، وقد أطلق "المبرد" على هذا النوع من التشبيه (التشبيه المعيب)[1] ، وأذكر مثالا له؛ ليتضح المراد.

يقول الشاعر:

ما رَوضَةٌ خَضراءَ أَزهَرَ نَورُها ... بِالقَهرِ بَينَ شَقائِقٍ وَرِمالِ

بَهِجَ الرَبيعُ لَها فَجادَ نَباتُها ... وَنَمَت بِأَسحَمَ وابِلٍ هَطّالِ

حَتّى إِذا اِلتَفَّ النَباتُ كَأَنَّهُ ... لَونُ الزَخارِفِ زُيِّنَت بِصِقالِ

نَفَتِ الصَبا عَنها الجَهامَ وَأَشرَقَت ... لِلشَمسِ غِبَّ دُجُنَّةٍ وَطِلالِ

يَوماً بِأَملَحَ مِنكَ بَهجَةَ مَنظَرٍ ... بَينَ العَشِيِّ وَساعَةِ الإيصالِ

حُسناً وَلا بِأَلَذَّ مِنكِ وَقَد صَغَت ... بَعضُ النُجومِ وَبَعضُهُنَّ تَوالي[2]

تجد المبرد لا ينفي صفة التشبيه عن هذا التركيب الفني، ولكنه ينفي عنه صفتي القرب والإصابة وفق أوصافه وألقابه التي خلعها على التشبيه بصورة عامة، ولا يخفى أن رؤية المبرد للتشبيه تنسجم مع باكورة الفكر البلاغي في عصره.

ويبدو أن المساحة السياقية التي شغلها التشبيه، والانحرافات الأسلوبية التي اتسم بها هي التي دفعت المبرد إلى إلصاق صفة العيب به، فقد كان البناء التركيبي للتشبيه يخضع لمعايير بلاغية ونقدية تقتضي أن يكون طرفا التشبيه في مساحة سياقية لا تتجاوز البيت أو البيتين.

---

(١) ينظر: السابق ٢/٩٢.

(٢) ديوان الأخطل، السكري /٤٥٥، تحقيق فخر الدين قباوة، ط٤، دار الفكر، دمشق.

وقد أخرج "النويري"[١] هذا النوع من باب التشبيه، ووضعه في باب (التفريع) الذي عرّفه بقوله:" أن يصدّر المتكلم أو الشاعر كلامه باسم منفي بـ (ما) خاصة، ثم يصف المنفي بمعظم أوصافه اللائقة به في الحسن أو القبح، ثم يجعله أصلا يفرع منه جملة من جار ومجرور متعلقة به تعلق مدح، أو هجاء، أو فخر، أو نسيب، أو غير ذلك"[٢] ، فجعل هذه الخصائص من التفريع، وإذا كان "النويري" قد أحسن في وصف المكونات اللغوية والأسلوبية والدلالية، فإنه أخفق في التسمية أو المصطلح، وهذا ما نجده واضحا في التأثير بالمصطلح الغربي، الذي يتسم بالغموض الشديد، فلم يوفق في دلالة المصطلح على المراد، ومن ثمَّ لا تحمل لفظة التفريع طاقة دلالية للتعبير عن المضمون، ولا تقوى تلك اللفظة على اختزال الشحنات الفنية والنفسية التي اشتمل عليها التركيب التشبيهي، كما أن البلاغيين مختلفون في مفهوم (التفريع) الذي ارتضاه "النويري" لهذا التقسيم، فابن رشيق يرى أن التفريع من الاستطراد، كالتدريج من التقسيم، وذلك أن يقصد الشاعر وصفا، ثم يفرّع منه وصفا آخر يزيد الموصوف توكيدا"[٣] ، وتزداد مساحة الاختلاف حينما يضم

(١)–النُّوَيْري (٦٧٧ – ٧٣٣ هـ = ١٢٧٨ – ١٣٣٣ م)، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري: عالم بحاث غزير الاطلاع نسبته إلى نويرة (من قرى بني سويف بمصر) ومولده ومنشأه بـ (قوص)، اتصل بالسلطان الملك الناصر ووكله السلطان في بعض أموره، وتقلب في الخدم الديوانية، وباشر نظر الجيش في طرابلس، وتولى نظر الديوان بالدقهلية ، وكان ذكيّ الفطرة، حسن الشكل، فيه أريحية وود لأصحابه. وله نظم يسير ونثر جيد، ويكفيه أنه مصنف (نهاية الأرب في فنون الأدب) كبير جدا ،وهو أشبه بدائرة معارف لما وصل إليه العلم عند العرب في عصره.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري١٦٠/٧، نسخة مصورة عن طبعة دار الأدب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدبه ونقده، القيرواني/٤/٢، ط٤، تحقيق، محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل ١٩٧٢.

تعريف القزويني للتفريع وهو "أن يثبت لمتعلق أمر حكم بعد إثباته لمتعلق آخر"[١] .

ولم يجمع الباحثون والدارسون في العصر الحديث على اصطلاح واحد لهذا التركيب التشبيهي، فـ "شوقي ضيف" يسميه" التضمين"[٢]، في دراسته لشعر الأعشى، ويسميه "شكري فيصل":(الاستدارة التشبيهية)[٣] ، في معرض موازنته بين التشابيه الموجزة عند امرئ القيس والنابغة، والتشابيه المطولة عند الأعشى وعنترة، ويكاد "شكري فيصل" يقترب من تعليل التسمية بقوله: "فاستدارا "الأعشى وعنترة" من الأصل إلى الصورة، ومضيا فيها عرضا لجوانبها وإلحاحا عليها، ثم عادا بعدُ بكل هذه التفاصيل إلى الأصل الذي صدرا عنه..." [٤]، ويقترب "عبدالقادر الرباعي" من "شكري فيصل" في التسمية إذ يطلق عليه(التشبيه الدائري)[٥]، ويحاول "الرباعي" تعليل التسمية بقوله: "إن العمل الخاص الذي يقوم به الشاعر في هذا التشبيه، وهو الدوران من النفي إلى الإثبات، جعلنا نميزه باسم (التشبيه الدائري)؛ ليكون لونا جديدا من ألوان التشبيه ينضاف إلى الألوان الأخرى، كالضمني والبليغ وغيرهما"[٦] .

والاستدارة أو التحول من النفي إلى الاثبات لا يشكل عصب الصورة الفنية التي نهض بها هذا التشبيه، فالأسلوب اللغوي المتمثل بالنفي والإثبات؛ وسيلة

---

(١) التلخيص في علوم البلاغة- القزويني ٤/٢، ط٢، ضبطه وشرحه، عبدالرحمن البرقوقي. دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) العصر الجاهلي ، شوقي ضيف/٣٦٤، ط٧، دار المعارف بمصر.

(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، شكري فيصل /١٩٧، ط٧، دار العلم للملايين، ١٩٧٦.

(٤) السابق / ١٨١.

(٥) الطير في الشعر الجاهلي، عبدالقادر الرباعي/ ١٤٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٨م.

(٦) الطير في الشعر الجاهلي /١٩٣.

لتجسيد الصورة الفنية، ولهذا يصعب الاتكاء على الوسيلة لاعتماد المصطلح الذي يُنظر إليه على أنه مركز إشعاع دلالي وفني.

ويطلق "إيليا الحاوي" عليه" التشبيه الاستطرادي"(١) ، ويرى فيه امتدادا للتشبيه التمثيلي، وقد أشار" نصرت عبدالرحمن" إلى هذا اللون من التشبيه دون تحديد مصطلح له، لكنه أشار من بعيد إلى التشبيه الطويل(٢).

يتجلى من خلال ما تقدم: أن الاختلاف بين البلاغيين والنقاد–قديما وحديثا– في تسمية نوع من التشبيه يبرز حضوره عند غير شاعر، فما زالوا بعيدين عن نقطة تقاطع يصطلحون عليها، واللافت في تسمياتهم أنها تفتقر إلى القاسم الدلالي المشترك، فلا قاسم دلالي يجمع بين التضمين والاستطراد والاستدارة، وفي مقابل هذا الافتراق نجد بعض المسميات تتقارب دلاليا إلى درجة يمكن الاستغناء عن بعضها؛ لتخفيف المستوى الكمي للمسميات، وإلا فقد(المصطلح) قيمته من حيث التبني والشيوع، ووقع المتلقي في حيرة تعددية لا طائل منها.

وأشار البلاغيون القدماء إلى اختلافهم في تسمية المصطلح الواحد، وذكروا من يخالفهم في تسميتهم في غير موضع، فمصطلح(التسهيم) وهو:" أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عُرف الروي"(٣) ، ويذكره ابن رشيق دون تعريف محدد على الرغم من وفرة الأمثلة التي أوردها، وينوه إلى اختلاف التسمية عند غيره بقوله: "وقدامة يسميه التوشيح...، وقيل: إن الذي سماه (تسهيما) علي بن هارون المنجم، وأما ابن وكيع فسماه

(١) الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره، إيليا الحاوي/٥٦١، دار الثقافة، بيروت١٩٧٩م.

(٢) ينظر: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، نصرت عبدالرحمن/١٥٨، مكتبة الأقصى، عمان ١٩٧٦م.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني٤٩٢/٢، ط٤، تحقيق/ محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتب اللبناني ١٩٧٥م.

(المطمع)"[1] ، ففكرة تعدد المصطلح قديمة لدى البلاغيين والنقاد العرب؛ مما شكَّل هذا التعدد خلطا لدى المتلقي، فالمصطلح الذي لا يشير إلى دلالات معرفية محددة يحدث إرباكا وفوضى في الدلالات المعرفية، ولكن هل هذا التعدد في المصطلحات له جانب إيجابي أم سلبي؟؟!!.

(١) العمدة، ابن رشيق القيرواني١/٣١.

المبحث الثالث

(الأيديولوجيا) بين البلاغة العربية والمصطلح الغربي

مصطلح الأيديولوجيا:

بداية لا أريد إرساء تعريف عميق لهذا المصطلح، فليس هذا مجال البحث، حيث إن كلمة أيديولوجيا دخيلة على جميع اللغات الحية، وتعني في أصلها الفرنسي[1]، علم الأفكار، لكنها لم تحتفظ بالمعنى اللغوي، إذ استعارها الألمان وضمّنوها معنى آخر، ثم رجعت إلى الفرنسية، فأصبحت دخيلة حتى في لغتها الأصلية.

ولكن الأهم معرفة تأثير هذا المصطلح، وانتشاره في البلاغة الحديثة، مما كان له الأثر البالغ في البلاغة العربية، وسيتضح هذا من خلال ذلك المبحث.

وليس من الغريب أن يعجز الكتَّاب العرب عن ترجمة هذا المصطلح بكيفية مرضية، فالعبارات التي تقابلها:(منظومة فكرية، عقيدة، ذهنية... إلخ)- تشير فقط إلى معنى واحد من بين معانيها.

ومن العجيب أنك تجد في العلوم الإسلامية لفظة لعبت دورا محوريا كالدور الذي تلعبه اليوم كلمة (إيديولوجيا)، وهي لفظة (الدعوة) في الاستعمال الباطني، غير أنه من المستحيل إحياؤها والاستعاضة بها عن كلمة إيديولوجيا التي انتشرت رغم عدم مطابقتها لأي وزن عربي.

---

(١) حيث يعود استخدام مصطلح الإيديولوجيا إلى المفكر الفرنسي "أنطوان دستيت دي تراسي(١٨٣٦-١٧٥٤) في كتاب له بعنوان "تخطيط العناصر الإيديولوجية"، المنشور عام ١٨٠١م، وكان الهدف من ورائه إلى تأسيس علم جديد هو: علم الأفكار، فالعقل عنده يجب أن يتغلب على كل الأساطير والخرفات، والمعرفة ينبغي أن يقودها التفكير السليم، وهكذا فإن علم الأفكار هو العلم الأولى الذي يوجه كل العلوم الأخرى، والأيديولوجيا هي نظرية النظريات (مقدمة في علم الاجتماع، إبراهيم عثمان/٩٩ دار الشروق، الأردن، ط١، ٢٠٠٤م).

وقد عرَّبها "عبدالله العروي" وأدخلها في قالب من قوالب الصرف العربي فقال، "أدلوجة" على وزن "أفعولة"، وصرفها حسب قواعد العربية، أدلوجة جمعها أداليج وأدلوجات، وأدلج إدلاجا، ودلج تدليجا، وأدلوجي جمع أدلوجيون[1].

والأيديولوجيا في اللغة؟

تعد لفظة الأيديولوجيا (بالإنجليزية: Ideology) من الألفاظ التي تحتاج إلى توضيح، وقد اختلف الدّارسون، والنقاد، والباحثون حول مفهوم الأيديولوجيا حسب السياق الذي تستعمل فيه؛ نظرًا لارتباطها بالعلوم المختلفة، وقد عرفت الأيديولوجيا لغويًّا بأنها: علم الأفكار.

ويُقصد بالأيديولوجيا في الاصطلاح العلمي؟

أنها: مجموعة من القيم، والأخلاق، والأهداف التي ينوى تحقيقها من الفرد أو الجماعة على المدى القريب والبعيد.

وتختلف الأيديولوجيا من عصر إلى عصر؛ فالأيديولوجيا في العصور القديمة، تختلف عن العصر الحديث، وقد عُرِّفت الأيديولوجيا في عصر من العصور بأنها "الأفق الذهني الذي كان يحدد فكر إنسان ذلك العصر، ويمتلك كل فرد من الأفراد أيديولوجيا خاصة به، متأثرة بثقافته، ومجتمعه، وغيرها"[2] .

---

(١) مفهوم الأيديولوجيا، عبدالله العروي/٩، ط٨، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب.

(٢) السابق/١٠.

علاقة الأيديولوجيا باللغة:

تعد دراسة اللغة بوصفها ظاهرة حاسمة في فهم الوعي والحياة الاجتماعية، أحد المظاهر المهمة في تطور الفكر المعاصر، وذلك بالنظر إلى اللغة باعتبارها نظاما من العلامات التي تعبر عن الأفكار، ومن هنا تصبح الأيديولوجيا ظاهرة جديرة بالبحث في علاقتها باللغة على أساس أن الأيديولوجيا هي مستوى من المعنى الذي يمكن العثور عليه في كل أنواع الخطاب.

يقول أحد علماء الغرب "شتراوس": " إن اللغة هي الظاهرة الاجتماعية الوحيدة التي تبدو اليوم قابلة لدراسة علمية حقا"(١) .

وتتضح أهمية اللغة بالنسبة للأيديولوجيا في أنها الأداة الأساسية في نقل وإيصال الأفكار، وتفسيرها، وتعليل أغراضها ومراميها، كما أنها الوسيط القادر على التوجه لمختلف الاتجاهات التي تدعو إليها، أو تعمل للتركيز ولفت النظر لها، بحكم أن اللغة هي الوسيلة التي لا غنى عنها في التعبئة والتثقيف لما تتوخاه الأيديولوجيا من عمل أو جهد لبلوغ أهدافها.

فعن طريق اللغة تفرض الأيديولوجيا نفسها، كما أنه لا توجد أيديولوجيا، أو سلطة لم تسع إلى استثمار اللغة لصالح أغراضها، إن الأيديولوجيا لا بد وأن تستعين بالعواطف والمشاعر والأحاسيس.

مصطلح الأيديولوجيا والبلاغة العربية:

من المعلوم أن البلاغة العربية قامت على إيصال المعنى للسامع، والخطيب المفوه البليغ هو من كان قادرا على الدفاع عن موقفه ورأيه في حال الصواب والخطأ، وفي حالة الحقيقة والزيف، وفي حال الحق والباطل، وأكد العتابي هذا–وهو متكلم معتزلي– بقوله:" كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبسة، ولا استعانة، فهو بليغ، فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة ويفوق كل

(١) الأنثروبولوجيا البنيوية، كلود ليفي شتراوس/٧٨، ترجمة مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٧.

خطيب؛ فإظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق"[1]، لكن الأهم الإقناع، وإمالة جمهور المستمعين للمتكلم، وهذا هو دور البلاغة العربية التي هي أعلى مراتبها.

ومن المعلوم أن البلاغة العربية في عرف المعلمين، وفي التعريف المدرسي لها، لا تنتج فنا، سواء أكان فنا أدبيا أم فنا في مقارعة الأفكار وحد حلبات الجدال، بل هي وسيلة من وسائل التعبير؛ لذا وصفت الأيديولوجية كمصطلح غربي بأنها حاملة لوعي ولأفكار الفرد.

ومن بين مَنْ تحدثوا عما يعرف الآن بـ"الأيديولوجيا" ابن المقفع١٤٣هـ": عندما سئل ما البلاغة؟ قال: "اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة"[2]، فقد أشار "ابن المقفع" إلى أنواع الخطاب ومدى ملاءمة الكلام للمقام الذي ينشأ فيه للوصول إلى تحقيق عملية الإفهام والتواصل.

وهذا ما قال به الإمام "عبد القاهر الجرجاني ": "وكان مما يُعلَم بِبَدائه المعقول أنّ الناس إنما يكلم بعضهم بعضا؛ ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده، فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبر من خبره ما هو؟ أهو أن يُعلِم السامع المخبَرَ به والمخبر عنه، أم أن يعلمه إثبات المعنى المُخبرِ به للمخبَر

(١) البيان والتبيين، الجاحظ ١١٢/١، دار ومكتبة الهلال، بيروت١٤٢٣ هـ .

(١) – البيان والتبيين ١١٤/١.

عنه"؟[1]، وقد أُخذ هذا الكلام المثمر في ثوب جديد بمصطلحات جديدة، – كهذا المصطلح– والتي أثرت بطريقة مباشرة في الدرس البلاغي.

إن الناظر في سمات الأيديولوجيا كما تحددت عند "بول ريكور" يخلص إلى: تبين أوجه الصلة الجامعة بين البلاغة من جهة، والممارسات الإيديولوجية من جهة ثانية، فالبلاغة تتحدد أساسا بوصفها فعالية خطابية واستدلالية يتوسلها المتكلم لعرض فكرة أو فرض نظرية، وفي الحالين تقوم البلاغة سياسة في القول مخصوصة يتلطف منها المتكلم إلى تحصيل مطلوبه من حمل المخاطب على الإذعان والتسليم بما يلقى إليه من مضامين، وإن لم يعتقد فيها حقيقة قائمة؛ لأن التعويل في مقامات التخاطب التي قصدها التأثير إنما يرتكز على سحر البيان وسلطة الكلام، وليس صحة (المعلومة)، أو صدق الخطاب، وفي هذا المستوى تظهر الصلة وثيقة بين العتاد البلاغي والممارسة الإيديولوجية؛ إذ إن الخطاب –في المطلق– واقعة تواصلية تلتبس فيها المقومات البلاغية بالمقاصد الأيديولوجية، فالخطاب –كل خطاب متضمن بالضرورة لمقتضى حجاجي واستدلالي، بما هو (رسالة) صادرة من باث إلى متقبل قد يكون فردا، أو جماعة، أو شعبا، أو الإنسانية جمعاء، الغرض من بثها وإلقائها إيقاع التصديق والحمل على الاقتناع، وهو مقصد تأثيري وإقناعي يستند –بالتأكيد– إلى تصورات المجتمع المرتهنة إلى الرأي الشائع والقناعات المشتركة، إذ لا يمكننا أن نتصور (متكلما) يعي ما يقول يمكن أن يتوجه إلى رفض ما أطبق الناس على الاعتقاد فيه، أو دحض ما أجمعوا على رفضه وإنكاره، وعند هذه النقطة (الاقتناع استنادا إلى الرأي الشائع والمشترك) ينفتح المجال؛ لتلبس البلاغي بالأيديولوجي، ففي السنوات الأخيرة ظهرت مناقشة العلاقة بين الأيديولوجيا والبلاغة، وأخذت منعطفا

(١) – دلائل الإعجاز – لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني/٥٣٠، ت/ محمود شاكر– مكتبة الخانجي بالقاهرة.

جديدا؛ حيث أعطيت الأيديولوجيا الصدارة، وأصبحت إشكالية بطريقة وضعت البلاغة داخل الأيديولوجيا بدلا من وضع الأيديولوجيا داخل البلاغة، وبعبارة أخرى: فبدلا من أن تعمل البلاغة كمُسجِّل فوقي، أو كمُحْكِم بين الدعاوى الأيديولوجية المتنافسة أصبح ينظر إليها على أنها دائما أيديولوجية(١).

إن الناظر في علاقة البلاغة بالأيديولوجيا سيلحظ –لا محالة– التباسا وتعقيدا يطبعان –من غير شك– هذه العلاقة، ذلك أن الأيديولوجيا تسخر البلاغة أداة حين تضطلع بدور تبريري ملازم لدورها القيادي –كما نبه على ذلك بول ريكور– وفي هذه الحال لا تعدو البلاغة أن تكون (تقنية) في يد الأيديولوجيا تصطنعها خدمة للمقاصد، وهي بذلك تمثل الجانب التبريري في الأيديولوجيا، ذلك أن الأيديولوجيات السياسية والاقتصادية جميعها صيغت بطرق استعارية (٢) .

لكن تدقيق النظر في هذه المسألة من شأنه أن يقود الباحث؛ لأن يستخلص أن البلاغة –من جهة مقابلة–خاصة عندما ترتبط بالمقاصد، كما هي متجسدة في مباحث الحجاج، عبارة عن خطاب عملي وظيفي وغائي مستند إلى خلفية أيديولوجية في عرض القناعات والتعبير عن المعتقدات، وبذلك تغدو البلاغة ضربا من الأيديولوجيا **في نظر البلاغة الحديثة**: تحتج وتبرر، وتستدل وتسوغ؛ لحمل المخاطب على الإذعان، وإن لم يحصل له اقتناع حقيقي، بما يؤشر على تغليب لـ (الغائية)، واحتكام لـ(القصدية) في سعي؛ لتحويل (الرأي) إلى (عقيدة).

لذا؛ قيل: إن البلاغة بوصفها فن الإقناع بالرأي – كما يعتقد كثيرون– لهي (الأيديولوجيا) عينها، إنها رؤية للكون، وموقف من الوجود متى اعتنقناهما

(١)– ينظر: المضمر الأيديولوجي في اللسانيات، محي الدين محسب/٣١٨، م فصول.
(٢)– ينظر: الاستعارات التي نحيا بها، لايكوف وجونسون/ ٢٢٠.

تحولنا من مجال الإقناع بـ(رأي من آراء) إلى الحمل على الإذعان لـ (عقيدة) تفرض فرضا.

وبهذا الفهم تغدو البلاغة ممارسة خطابية تنقل (البلاغي)، إذ يلتبس بـ(الأيديولوجي)، من مجال الإمكان والاحتمال إلى مجال البداهة والمصادرة على المطلوب؛ لأن (الما صدق) ليس شرطا في الحجاج الناجح كما هو مقرر عند علماء الحجاج ومنظِّرِيهِ [١].

فالبلاغة كما نص على ذلك التوحيدي: "تحق الحق وتبطل الباطل على ما يجب أن يكون الأمر عليه، ثم تحقيق الباطل وإبطال الحق لأغراض تأتلف، وأمور لا تخلو أحوال هذه الدنيا منها من خير وشر، وإباء وإذعان، وعدل وعدول، وكفر وإيمان"[٢]، وذلك أن المتكلم "لا يعد في المجادلين الحذاق حتى يكون بحسن بديهته، وجودة عارضته، وحلاوة منطقه قادرا على تصوير الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق"[٣] .

صحيح أن الحق في المطلق واحد، ولكنه في تجلياته العملية نسبي، وفي هذا المستوى تظهر الحاجة إلى (البلاغة) سياسة في القول مخصوصة، قادرة على قلب الحق إلى باطل والباطل إلى حق.

ومن الواضح أن الحقائق لا تنقلب في أعيانها، ولكن في صورها اقتدارا من البليغ، وتمهرا في فنون القول وسحر البيان، فكما أن السحر لا يغير من الواقع شيئا، وإنما الساحر يجري التغيير في عقول المستمعين، كذلك البليغ يستطيع بما يصطنع من إفصاح بالحجة، ومبالغة في وضوح الدلالة من بلوغ أعلى

---

(١) حيث يرون أنه ليس عمل هذه الصناعة [الخطابة] أن تُقنع، أعني: أنه ليس يتبع فعلها الإقناع ضرورة(تلخيص الخطابة، ابن رشد/٢٤)، وينظر: كذلك الخطابة، أرسطو/٢٨.

(٢) مناظرة التوحيدي لابن عبيد حول البلاغة والحساب –الإمتاع والمؤانسة ١ /١٠١.

(٣) نقد النثر، قدامة بن جعفر/١٣٢، تح: عبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية – بيروت١٩٩٥م.

مراتب التأثير العقلي والعاطفي في متلقيه، بما يكفل تحصيل المتكلم لمطلوبه في تكييف عاطفة السامع وتعديل اعتقاده على نحو يستجيب لمقاصده ومراميه.

وإذا كنا نستخلص مما سبق تلازم (الأيديولوجي) و(البلاغي)، فإن ذلك يدفعنا إلى التساؤل عن حال البلاغة في السياق العربي، هل ارتهنت هي الأخرى إلى المقصدية الأيديولوجية في تشييد الأنساق الناظمة لمشاريعها البلاغية المعتبرة؟ أم أن النظام البلاغي العربي بلور تصوراته بمعزل عن التأثيرات الأيديولوجية المختلفة؟

وعند إمعان النظر في الموروث البلاغي العربي –في حدود فهمنا وطاقتنا– نجده يسجل ملحظا لا يخلو –في تقديرنا– من أهمية مؤداها هيمنة المقصدية الأيديولوجية على هذا الموروث، وهي هيمنة يمكن تلمس بعض مظاهرها في مستويين: يتصل الأول: بـ (بنية الخطاب)، ويخص الطريقة المعتمدة عند علمائنا القدامى في بسط المشاغل البلاغية التي استأثرت باهتمامهم.

أما الثاني: فمتعلق بـ (فحوى الخطاب)، ويهم القضايا التي استأثرت باهتمام علماء البلاغة العربية المعتبرين.

إن فحص (بنية) الخطاب البلاغي العربي باعتبار (نسق المفاهيم)، و (نسق الغايات) يكشف عن خطاب إيديولوجي صريح من طوابعه توجه سجالي يحاور الخصوم متحديا، ويقيم الحجة ويطلبها، بما يجعل الخطاب البلاغي –في المحصلة– بنية حجاجية أيديولوجية عمادها الدفاع عن ملفوظ إزاء ملفوظات أخرى؛ مما يدل دلالة واضحة على تأثير هذا المصطلح في الدرس البلاغي العربي.

من هنا يمكن القول: إن المصطلحات الغربية والنظريات الحديثة أثرت تأثيرا كبيرا في الدرس البلاغي، فمنها ما هو صالح لأن يكون خلفا للبلاغة العربية في إضافة أشياء جديدة، ومنها ما ليس له صلة بها مطلقا لما فيها من تعمد الغموض، وليست البلاغة هكذا، فلا نلتفت إلى الذين تحمسوا لهذا

الجديد، فاندفعوا في قول غير متوازن؛ فرموا البلاغة العربية بالعقم والجمود، وقالوا: "إننا ما زلنا نُدَرِّس طلابنا في المدارس والجامعات البلاغة بعلومها الثلاثة، ولا نعي أن ما ندرِّسه لهم لم يعد يصلح لشيء؛ فلا هو أداة نقدية صالحة للتوظيف، ولا هو أساس لمعرفة ذوقية أو تبصر جمالي"(١)، وهذا ظلم بيِّنٌ للبلاغة العربية، فهي لا تنتج الصور لخلق الجمال، وتأدية وظيفة التأثير الجمالية فحسب، بل هي أداة ووسيلة من وسائل إنتاج أنواع النصوص، ولها القدرة على تقديم جنس أدبي على آخر.

(١) – أثر المتلقي في التشكيل الأسلوبي في البلاغة العربية، أ. د/ وليد ابراهيم القصاب ٦٤٢. وينظر: (نقد ثقافي أم نقد أدبي، عبدالله الغذامي /١٢، دار الفكر، دمشق: ١٤٢٥/٢٠٠٤م.

الخاتمـــــــة

في نهاية المطاف...

وبعد هذه الجولة السريعة في أجواء الاستغراب وأثره في البلاغة العربية، يمكن القول بأن اللسانيات اليوم تعرف انفتاحا حضاريا واسعا على النماذج والتحليلات والنظريات التي عرفها العالم الغربي منذ عقود، ولعل هذا الوضع الحضاري يفرض على الفكر البلاغي العربي أن يعقد حوارا مثمرا بين الماضي والحاضر، أي بين ما يزخر به هذا الفكر من طرق للتحليل ومفاهيم، وبين ما يعج به الفكر اللساني الحديث من نظريات في سبيل تحقيق انفتاح حضاري واع، يسير على درب التجديد المتبصر.

من هنا كان لا بد من وقفة نستجلي فيها نتائج هذا العمل، فقد سعى البحث إلى إثبات أن المصطلحات الغربية أثرت تأثيرا كبيرا في الدرس البلاغي.

لذا كان من أهم النتائج ما يأتي:

- أهم مظاهر الاستغراب تتمثل في عنصرين هما: المقام البلاغي، والنسق البلاغي.
- تمثل أساليب البلاغة من تشبيه، واستعارة، وكناية، وغيرها صورة من صور الحجاج بمفهومه الحديث، إذ استعملها الخطاب مستعينا بمعرفة المخاطب، وثقافته في الوعي الجمعي، وقد استمد عناصرها من بيئة المخاطب زمانا ومكانا، فهي وسائل ناجحة في التأثير واستمالة المتلقي بما يتلاءم وقصد المتكلم لما تمتلكه من سمة مؤثرة، كما أنها من عوامل توليد المعنى وإبداعه.
- إن تطبيق مظاهر الاستغراب في البلاغة العربية يسهم بشكل كبير في إظهار خصائص العربية، وبيان ما تتميز به من ظواهر وأساليب؛ لمعالجتها في ضوء الاستعمال بتوسيع الإدراك التحليلي إلى

لحظات التواصل الخطابية بعيدا عن الجمود في التركيب، فاللغة العربية أسمح في تبني عناصر المقام التواصلي.

- توصلت الدراسة إلى الكشف عن توظيف المقام البلاغي العربي، فهو الأساس في تحليل المعنى، حيث جاء هذا التوظيف بما يلائم المعاني، بل هي طريقة لتوليد المعاني، ولا شك أنها طريقة علمية، ومنهجية تستحق البحث والدراسة؛ إذ تحمل معطيات لغوية تكشف عما يحتويه الخطاب نفسه من معارف، وعن توظيف المرسل لأساليبه ولغته وانتقاء ألفاظه، وهو بذلك يقر ضمنا بحق المتلقي في تحليل خطابه؛ ليكون عنصرا فاعلا في إنتاج المعنى.
- كشفت الدراسة عن أهم الأسس والركائز الرئيسة للدرس اللغوي الحديث، وأنها قد عرف مضامينها العلماء العرب، لكن لم تكن بهذه المسميات، بل كانت سليقة عندهم من نحويين وبلاغيين ومفسرين.
- كشفت الدراسة عن عناية العلماء العرب في شتى الميادين بالجانب الاستعمالي للُّغة، واهتمامهم بعناصر العملية التواصلية، واستحضار المقام، الأمر الذي يتطلب منا العودة إلى التراث العربي الأصيل بغية اتخاذه قاعدة للانطلاق نحو آفاق الدرس اللغوي الحديث وتطوراته المتتابعة؛ لتشكل على وفق ذلك رؤية فكرية متكاملة الجوانب تستمد أصالتها من تراثنا العتيد، وتواكب تطورات علم اللغة بشتى مناهجها.

مقترحات:

- لاتزال مكتبة كليات اللغة العربية في احتياج إلى الاستزادة من المراجع والمصادر، والرسائل العلمية المتنوعة (ماجستير ودكتوراه) التي تعنى بالاستغراب تنظيرًا وتطبيقًا.
- إبراز معالم التلاقي بين البلاغة العربية والنظريات اللغوية الحديثة، وتطبيق ذلك في ضوء تراثنا اللغوي.

- أن تخصص دراسات بآليات الاستغراب كل على حده، حتى تتم الإفادة .

وبعد ... ، فهذا عملي وجهدي المتواضع فإن وفقت فمن الله وحده ، وله الحمد والمنّة، و إلا فمن نفسي والشيطان، وحسبي أنني اجتهدت وبذلت ما في وسعي، وأرجو من الله تعالى العفو والمغفرة "قَالَ تَعَالَىٰ:﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ هود: ٨٨ "

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليما كثيرا.

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- أثر الاستغراب في التربية والتعليم بالمغرب د. عبد الله الشارف، منشورات كلية الآداب بتطوان، ٢٠٠٠م.
- الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره، إيليا الحاوي، دار الثقافة، بيروت١٩٧٩ م.
- الاستشراق والاستغراب، علاء الدين أحمد خليفة، ط١، دار غيداء للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م.
- الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر د. عبد الله الشارف، منشورات نادي الكتاب، تطوان، المغرب، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.
- أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة (دراسات وحوارات)، محمد العمري ، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٣م.
- إشكالية المصطلح البلاغي، عمر عبدالهادي عتيق ، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، عدد٣، نيسان ٢٠٠٤ م.
- الأنثروبولوجيا البنيوية، كلود ليفي شتراوس ، ترجمة مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٧م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ط٤، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتب اللبناني ١٩٧٥م.
- البلاغة الجديدة وسؤال المنهج د/ عيد بلبع ، مجلة فصول المجلد، ع ١٠١، خريف٢٠١٧م.
- البلاغة تطور وتاريخ ، د/ شوقي ضيف، ط٩، دار المعارف، الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية.
- البيان والتبيين ، أبي عثمان عمرو بن بحر ، دار ومكتبة الهلال، بيروت١٤٢٣ هـ .
- تحولات النسق البلاغي الغربي بين التراث والتجديد، حسين خالفي ، مجلة فصول م عدد/١٠١، خريف ٢٠١٧ م.

- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، شكري فيصل ، ط٧، دار العلم للملايين، ١٩٧٦ م.
- التلخيص في علوم البلاغة القزويني، ط٢، ضبطه وشرحه، عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- الخطابة، أرسطو ، حققه وعلق عليه: عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٩م.
- دلائل الإعجاز – لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، ت/ محمود شاكر – مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- ديوان الأخطل، السكري ، تحقيق فخر الدين قباوة، ط٤، دار الفكر، دمشق.
- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، نصرت عبدالرحمن ، مكتبة الأقصى، عمان ١٩٧٦.
- الطير في الشعر الجاهلي، عبدالقادر الرباعي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٨م.
- العصر الجاهلي ، شوقي ضيف، ط٧، دار المعارف بمصر.
- علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٢م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدبه ونقده، القيرواني، ط٤، تحقيق، محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل ١٩٧٢.
- في الشعر الجاهلي، طه حسين ، ط٤، دار المعارف، وينظر: مقدمة نقد النثر لقدامة ابن جعفر، تحقيق: طه حسين، وعبدالحميد العبادي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠م.
- قراءة جديدة للبلاغة القديمة، رولان بارث، ترجمة: عمر أوكان، رؤية للنشر، القاهرة٢٠١١م.
- الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس ،

المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، ط٣، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان ، دار الثقافة، الدار البيضاء ١٩٩٤م.
- ما البلاغة؟ مجدي أحمد توفيق، دار السندباد للنشر والتوزيع، القاهرة.
- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، علق عليه، محمد فؤاد سزكين، ط٢، مؤسسة الرسالة ١٩٨١م.
- مجلة الرسالة، العدد ٢٤٠: ٢٤١، بتاريخ ١٩٣٨/٢/٧م.
- مجلة فصول، المجلد(١/٢٦)، عدد ١٠١ ، ٢٠١٨م .
- المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، تأليف / عبدالعزيز حموده، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة ١٩٩٨م.
- معاهد التنصيص على شروح التلخيص، عبدالرحيم العباسي، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، عالم الكتب.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د/ أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٣م.
- مفهوم الأيديولوجيا، عبدالله العروي ، ط٨، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب.
- مفهوم البراجماتية ونظرية المقام، منال النجار، ضمن كتاب: التداوليات (علم استعمال اللغة) تنسيق وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن،٢٠١٤م.
- المقام البلاغي بين التراث العربي والدراسات البلاغية المعاصرة، إبراهيم بن منصور التركي ، مجلة فصول(٤/٢٦) عدد ١٠٤ خريف٢٠١٨م.

- مقدمة في علم الاجتماع، إبراهيم عثمان، دار الشروق، الأردن، ط١، ٢٠٠٤م.
- مقدمة في علم الاستغراب، حسن حنفي ، ط٢، الدار الفنية للنشر والتوزيع،١٤١١هـ،١٩٩١م.
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، المرزباني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر.
- موقف أفلاطون من البلاغة من خلال محاورتي جورجياس وفيدروس، عماد عبداللطيف، مجلد٥، عدد٣، أكتوبر ٢٠٠٨م.
- نقد النثر، قدامة بن جعفر، ، تح. عبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية – بيروت١٩٩٥م .
- نقد ثقافي أم نقد أدبي، عبدالله الغذامي ، دار الفكر، دمشق: ١٤٢٥/٢٠٠٤م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري ، نسخة مصورة عن طبعة دار الأدب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

فهرس المحتويات

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٣٨١
٢	تمهيد(الاستغراب بين المفهوم والنشأة والوظيفة)	٣٨٥
٣	مفهوم الاستغراب في اللسان العربي والاصطلاح العلمي	٣٨٥
٤	نشأة مصطلح الاستغراب وتطوره	٣٨٧
٥	وظيفة الاستغراب	٣٩١
٦	المبحث الأول: (مظاهر الاستغراب في البلاغة العربية)	٣٩٢
٧	المطلب الأول: أثر الاستغراب في المقام البلاغي	٣٩٤
٨	المقام البلاغي بين البلاغة العربية والغربية	٣٩٤
٩	المطلب الثاني: أثر الاستغراب في النسق البلاغي	٤٠٣
١٠	المبحث الثاني: (أثر الاستغراب في المصطلحات البلاغية العربية)	٤٠٦
١١	تعدد المصطلح في ميزان النقد: (أسباب تعدد المصطلحات)	٤٠٨
١٢	المبحث الثالث: (الأيديولوجيا) بين البلاغة العربية والمصطلح الغربي	٤١٦
١٣	مصطلح الأيديولوجيا والبلاغة العربية	٤١٨
١٤	الخاتمة	٤٢٥
١٥	المصادر والمراجع	٤٢٨
١٦	فهرس الموضوعات	٤٣٢